21 متر مربع

رواية

بَضَاعةٌ مُزْجاةٌ

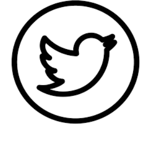
آية محمد رفعت

الكتـــــــاب: ٢١ متر مربع: بضاعة مزجاة
اسم المؤلفـــة: آية محمد رفعت
تصميم الغـلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: عيد إبراهيم عبدالله
الطبعـــــة: أبريل 2021
رقــم الإيـــداع: 5988 / 2021
الترقيـم الدولـي: 2 - 374 - 779 - 977 - 978
الموقـــــــع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســـط البـــــلد، القاهـــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com





dar__ibda3 ibda3-tp dar__ibda3

21 متر مربع

رواية

بَضَاعةٌ مُزْجاةٌ

آية محمد رفعت



الإهداء

إلى كل فتاةٍ ترى ذاتها منكسرة، ضعيفة، وبلا قيمة،
في مجتمعٍ قاسٍ، منحها الإهانة بدلًا من القبول.

شكر خاص

لعائلتي الكريمة على مساندتهم ودعمهم الدائم في كل خطوةٍ أخطوها..

شكر خاص لكل من قدم لي الدعم حين احتجت إليه من صديقاتي الكاتبات: (رحاب إبراهيم، ومنال سالم، وبدر رمضان).

شكر خاص لدكتور (عيد إبراهيم عبد الله).

وأخيرًا وليس آخرًا، شكرًا جزيلًا لكل قارئ كريم، قطع جزءًا من وقته الثمين لقراءة ما دونه قلمي المتواضع.

آية محمد رفعت

حين تفرض الحياة دور بطولة على أمٍّ، لم تكن سوى امرأة ضعيفة، وقليلة المقاومة، تتحمل آلام الظلم بصدرٍ رحب، تقبلها في تحدٍّ وجلد، لكن حينما يتعلق الأمر بابنتها الصغيرة ذات الجدائل الجميلة، فإنها تسرع لتتقاسم دور البطولة معها، من أجلها ستحارب حتى الرمق الأخير، لأجلها قاتلت حتى آخر أنفاسها، ليس لرغبتها في تكرار حياتها المليئة بالقهر والخذلان، وإنما لحُلم طالما حلمت به لها، أرادتها أن تصنع قدرها بذاتها، أن تعيش ماً حُرِّم عليها، لكن هل ستتمكن تلك الصغيرة من المحاربة لأجل من منحتها صك الحرية أم للقدر رأي آخر؟!

بضاعةٌ مُزجاة

تكتلات بشرية هائلة، تسد الطريق عن باب المنزل المتهالك، همسات جانبية تتردد من الأفواه عن مقتل هذا الرجل الذي يقبع في الطابق الأول من البناء، قوات الشرطة تداهم المكان لتمنع أحد الأشخاص من الدخول أو حتى الخروج لاتخاذ الإجراءات اللازمة، وضع الشريط الأحمر أمام الشقة المنشودة لتمنع أي شخصٍ من دخول مسرح الجريمة حيث سقط القتيل أرضًا، تحيط به بقع عميقة من الدماء، وبجواره السكين الذي يحمل بصمات القاتل، انحنى الرائد (سيف عزام) تجاهه وتفحصه بحدقتي عينيه السوداوين في دقة، اقترب منه الشرطي ليدون في دفتره بعض الملاحظات الذي جمعها من جيرانه، فسأله (سيف) في ثباتٍ، وما زالت نظراته مسلطة على القتيل الغارق في دمائه:

•جمعت معلومات عنه؟

أجابه الشرطي، وقد استقام في وقارٍ قائلًا:

•اللي عرفناه يا باشا بعد التحريات إن اسمه (عباس الفقي).. عنده ٦٥ سنة، وزوجته متوفية ومعندوش غير بنت واحدة، أرملة وعايشة معاه هي وبنتها.

انتصب واقفًا واضعًا كلتا يديه في جيبي معطفه البني الداكن متسائلًا

في دهشة، بدت جلية على قسمات وجهه القمحي:

•وبنته دي فين؟!

أجابه في حيرةٍ مما استمع إليه من بعض الجيران عن رحيلها المفاجئ قبل أن يكتشف أحدهم ما حدث حيث كان في طريقه إلى شقته في الطابق الرابع، فوجد الباب مفتوحًا على مصراعيه، وجاره البغيض مُلقى أرضًا، وعلى ما يبدو أنه قد لقي مصرعه:

•في واحدة بتقول إنها شافتها الصبح، وهي واخدة بنتها وبتركب من على ناصية الشارع.

أومأ في شكٍّ، فأشار تجاه السكين قائلًا في ملامح واجمة ليلقي نظراته الأخيرة على الرجل الكهل، وقد بدت أطراف الجريمة:

•ابعت سلاح الجريمة للطب الشرعي لرفع البصمات من عليها، وأنا هاجهز أمر بضبط وإحضار المدعي عليها.

أدى الشرطي تحيته العسكرية قائلًا في تأكيد:

•تحت أمرك يا باشا.

خرج الرائد ليترك مساحة للطبيب للولوج إلى مسرح الجريمة، لقد وقعت شكوكه على ابنته التي يعد رحيلها في هذا الوقت أمرًا مثيرًا للشكوك، وخصوصًا حينما شهد معظم سكان الحي البسيط بشجارها المعتاد مع والدها لأنه رجل بغيض، يكرهه كل من تعامل معه لبخله الشديد وتصرفه الوضيع حيث ذكر عن المجني عليه بأنه كثيرًا ما كان يخلق مشاكل عديدة مع من حوله، وعلى رأسهم ابنته

الوحيدة.

صوت أبواق السيارات كان يصدح بإشارة المرور، الملل من تزاحم السيارات في الطريق، جعل سائق الحافلة يزفر في غضبٍ محاولاً سلوك طريقٍ آمن للعبور من الازدحام المروري المعتاد لمثل تلك الطرق، توقف حركة السيارة واندفاعها بعد قليل خلف الأخرى، جعل الركاب في حركاتٍ اهتزازية كرد فعلٍ تلقائي بينما في نهاية الحافلة كانت تحتضن ابنتها في بكاءٍ مرير، تفصله دمعات حارقة، تسيل على وجهها الذي تحاول إخفاءه بغطاء رأسها، تخشى أن يراها أحد في حالتها المزرية تلك، وكأن وجهها مرآة ستكشف عما حدث منذ ساعات، حركت يدها المتجمدة في صعوبةٍ بالغة، فمسدت بها في حنانٍ رأس ابنتها الصغيرة لتزيح عنها إرهاق الطريق لطول المسافة المستغرقة للسفر من مدينة المنصورة في محافظة الدقهلية إلى القاهرة، مسدت بأصابعها المرتجفة رأس الصغيرة، فأزاحت الدمعات الباردة العالقة بأهداب عينيها، فعلى ما يبدو أن الصغيرة ما زالت تقاوم رؤيتها لآخر مشهد، ختمت به هذه الليلة اللعينة، اتكأت (غصن) بجسدها إلى الأريكة الخلفية للحافلة، تحاول الاسترخاء قليلًا لكن كيف ستتمكن من نيل قسطٍ من الراحة، وقد اقترفت جرمًا فاضحًا؟!

سلطت نظرات عينيها الباكيتين على أصابع يدها المرتجفة، تتذكر كيف كانت ملطخة بالدماء، دماء أبيها، تؤنبها ذاتها على ما فعلته؛ فحانت منها التفاتة صغيرة تجاه ابنتها البالغة من العمر خمسة

عشر عامًا، تطلعت إليها في نظرةٍ عميقة، خاضتها في مقارنةٍ سريعة ثم عادت لتسأل ذاتها: «هل يمكن أن أحتمل مصيري البائس لو لم أفعل؟!»

سؤال مصيري، الإجابة عنه كفيلة بجعلها تشعر برضا وقناعة تامة عما فعلته بأبيها، قتله بهذه الطريقة الوحشية أرضاها بعد الرحلة التي قطعتها لكن حينما كادت تلك الدوامة أن تبتلع ابنتها الوحيدة، ثارت وتمردت، فغريزة الأمومة لديها أكبر من حبها العظيم تجاه من يدعى (والدها).. لكن هل كانت كفة الميزان عادلة بينهما؟!

عادت السيارة لتعمل من جديد، فاستكملت طريق رحلتها المحدد تجاه القاهرة، لا تعلم إلى أي وجهة تقصد! لكنها في حاجةٍ إلى الابتعاد، والهروب من الشرطة التي قد تبعدها عن ابنتها الوحيدة، فلذة كبدها التي فعلت ما فعلته لأجلها هي.

كالمعتاد حينما تحدث جريمة قتل، تؤدي مواقع التواصل الاجتماعي دورًا فعالًا في انتشار خبرٍ كهذا لكن حينما يتعلق الأمر بقضية مريبة مثل المطروحة، يسترعي الحادث انتباه الأشخاص الذين يراقبون الخبر المطروح من خلف أجهزة التكنولوجيا الحديثة، عن مقتل رجلٍ كهل بأكثر من خمس عشرة طعنة، والشكوك تسري نحو ابنته الوحيدة، وخصوصًا هذا الاختفاء الذي دفع الجهات الأمنية إلى اتخاذ قرار حازم بشأنها، انتشرت صورة القتيل سريعًا، وبجواره وُضعت صورة صغيرة لابنته المطلوبة، وعلى الأغلب قد نال شفقة معظم من قرأ هذا

الخبر المثير على بعض الشبكات العنكبوتية خلال ساعات من مقتله..
توقفت الحافلة أخيرًا لتعلن انتهاء رحلتها الشاقة، فحملت (غصن) ابنتها ثم هبطت لتقف أمام الحافلة في ارتباك، جابت عيناها طرقات القاهرة المزدحمة في نظراتٍ حائرة، لا تعلم إلى أي اتجاهٍ تسلك! عزمت على ضم الصغيرة التي تصل قدماها إلى منتصف جسد (غصن) لتخطو في بطءٍ لثقل جسدها، حاولت بشتى الطرق ألا تجذب الانتباه إليها، فسألت إحداهن عن مكان إقامةٍ قريب للاستئجار، فأشارت أخرى إلى مكانٍ في الشارع الذي يليها، شكرتها (غصن) ثم انصرفت باحثةً بعينيها عن المكان الذي وصفته لها المرأة، وبالفعل وجدت بناءً مشابهًا لما ذكرت، كان متوسط الطول، يكسوه طلاءٌ بني هادئ، ويلتف حوله عدد من الأشجار، فتحت (غصن) كيس النقود الصغير لتلقي نظرة على المبلغ الذي في حوزتها، وحسمت أمرها باستكمال ما ستفعله لعلها تجد ملجأً للهروب مما ارتكبته، صعدت إلى الأعلى، فوجدت بابًا كبيرًا، يتوسط الطابق الأول، دفعته في رفقٍ لتجد مكتبًا كبيرًا بعض الشيء في منتصف الردهة الطويلة، وبجواره درج متوسط الطول، أجبرت قدميها الثقيلتين على التحرك لتقف أمام هذا المكتب العملاق، لقد ضم ثلاث فتيات حسناوات، تدون إحداهن المعلومات الشخصية عن أحد النزلاء.. وقفت (غصن) بجوارها، تنتظر أن تنهي حديثها مع الشاب الذي يقف أمامها برفقة فتاة، بدا أنها زوجته، التقط الشاب مفتاح الغرفة منها ثم صعد إلى الأعلى،

فانتبهت إليها موظفة الاستقبال، وقالت مبتسمة ابتسامة عملية قد اعتادت رسمها أثناء عملها اليومي:

•أقدر أخدم حضرتك؟

ابتلعت (غصن) لعابها المرير لتحاول استعادة صوتها الذي ظنته قد بُتر مع ما حدث، فقالت في صعوبة:

•كنت عايزة أوضة صغيرة.

سألتها حين فتحت صفحة جديدة في دفترها لتسجيل بياناتها:

•سعر الأوضة في اليوم الواحد ٤٥٠ج يا فندم.

أومأت موافقة، فأعدت الفتاة الاستمارة قائلة في ثباتٍ لتستمع إلى قولها:

•تمام، بطاقة حضرتك عشان أسجل البيانات.

أجابتها (غصن) في ارتباكٍ جلي، وقد أفصحت عنه لهجتها المتقطعة:

•مش معايا بطاقتي.

رفعت الفتاة رأسها قائلة في نظرة أسف:

•باعتذر ليكي، بس في قواعد هنا، من غير البطاقة مقدرش أحجزلك أوضة.

تسلل الحزن إلى أعماقها، فإلى أين ستذهب بابنتها في هذا الوقت المتأخر من الليل؟! بللت شفتيها بلعابها لتحاول استعطافها قائلة في نبرة رجاء:

•الله يكرمك تديني أي أوضة لبكره الصبح، أنا مش من هنا،

وكنت جاية أكشف على بنتي والقطر فاتنا، ومقدرش أرجع بليل كدا واحنا معناش راجل.

بدأت الفتاة ترق لحالها، وخصوصًا بعد أن لاحظت تورم عينيها من أثر البكاء، فأشارت بيدها في عطفٍ قائلة:

•بصي أنا مفيش بإيدي حاجة أعملها، بس هحاول أكلملك صاحبة الأوتيل، يمكن توافق.

وتركتها لتتجه نحو الطاولة الثنائية في نهاية الردهة بجوار الشرفة، جلست فتاة في منتصف العقد الثالث من عمرها، ترتدي فستانًا أحمر اللون، قصيرًا بعض الشيء، اقتربت منها الفتاة ثم انحنت لتهمس في صوتٍ منخفض، والأخرى تراقبها في اهتمام، تحول إلى نظرة راحة حينما لاحت ابتسامة على وجه الفتاة العاملة، فدنت منها قائلة في بهجة:

•خلاص يا ستي، أقنعتها.

وجذبت المفتاح الصغير من خلفها لتقدمه لها، فتناولته (غصن) مبتسمة لتشكرها في رقةٍ قائلة:

•مش عارفة أشكرك ازاي بجد، ربنا ما يوقعك في ضيقة أبدًا.

بادلتها الابتسام مشيرةً نحو الدرج الذي بجوارها قائلة في لطف:

•تسلمي يا رب، الأوضة ٩٨.

أومأت ثم سلكت الدرج للأعلى حتى وصلت إلى الغرفة المنشودة، فتحت بابها في صعوبةٍ ثم أغلقته سريعًا كأنها وجدت مكانًا تختبئ

فيه أخيرًا بعيدًا عن الجميع، وضعت طفلتها على الفراش الصغير بعض الشيء ثم دثرتها جيدًا لتجلس على المقعد الصغير المجاور للفراش، جلست عليه لتنخرط في نوبة بكاءٍ حارق، لطالما تساءلت؛ لماذا يدفعها القدر في طريقٍ أبت على الدوام المضي فيه؟! بل كانت مثابرة قوية لكنها الآن هزيلة ضعيفة منكسرة لأجل ابنتها، أرادت أن تحيا في سعادةٍ مع ابنتها دون أن تحيط بهما أي مصاعب، كانت تعمل ليل نهار لأجلها، وبالرغم من تعرضها لضغط أبيها وتسلطه عليها إلا أنها كافحت لأجلها وتناست جشعه الدنيء، نزعت (غصن) العباءة السوداء عن جسدها الأبيض ثم حررت غطاء رأسها ليتساقط شعرها الأسود القصير، شملت نظراتها الغرفة البسيطة لتجد حمامًا صغيرًا ملحقًا بها، ولجت للداخل ثم فتحت المياه لتغسل جسدها المختلط ببعض قطرات الدماء التي أخفاها جلبابها جيدًا، امتزجت دموع عجزها بقطرات المياه الباردة، وكلاهما أشد قسوة عليها مما تتلقاه...

*****

في الخارج

اهتز رأس الصغيرة في انفعالٍ، فتصببت حبات العرق على جبينها في غزارةٍ، عيناها مغلقتان في قوةٍ، وكأنها ترى كابوسًا مفزعًا لآخر صورة التقطتها ذاكرتها عن المأساة التي حدثت أمامها، عادت لترى ما حدث من جديد حينما جذبت والدتها السكين الموضوع بجوار طبق البرتقال لتدفعه في قوةٍ نحو جسد جدها، طعنة تليها الأخرى، والطفلة في حالةٍ من الصدمة لما تراه يحدث أمامها، فتحت عينيها في فزعٍ لتلتقط أنفاسها في بطءٍ شديد، تحتلها نوبة بكاءٍ لتردد في صوتٍ هزيل:

•لأ...... لأ...

انتشلتها تلك الغرفة الغريبة من دوامتها العالقة بين تذكر ما مضى وما هي عليه الآن، استدارت برأسها يمينًا ويسارًا في ذهول، أبعدت الغطاء الثقيل عن جسدها ثم نهضت باحثة بعينيها البنيتين عن والدتها محاولةً استكشاف هوية هذا المكان المجهول لكنها لم تتعرف إليه، فصرخت في جزعٍ قائلة:

•ماما... ماما!!

انقبض قلب (غصن) حين سمعت صراخ ابنتها، فأغلقت صنبور المياه ثم ارتدت ملابسها سريعًا لتهرول إلى الخارج في قلقٍ حيال ظنونها لما قد حدث في الخارج، رأتها تجلس أرضًا بجوار الفراش، تضم ركبتيها

إلى صدرها وتبكي في خوف، أسرعت إليها ثم انحنت لتكون مقابلة لها، وسألتها حين رفعت وجهها قائلة:

•في ايه يا (ريانا)؟

تجمد جسدها بين ذراعيها، جعل الرعب يدب في قلبها، فقالت في حزنٍ لتحتويها:

•اهدي.. كل شيء انتهى خلاص.

وأضافت في صوتٍ يكسوه الألم حين ربتت على ظهرها كأنها تعلل ما حدث:

•كان لازم أعمل كدا عشانك.

منحتها نظرة أسف لأنها السبب فيما ارتكبته، ضمتها (غصن) إلى صدرها في قوةٍ، وكأنها تود أن تخبئها داخل أضلاعها، فبعد أن اختبرت عمق الطريق، علمت كم أن هذا العالم يملأه الحقد وذوو النفوس المريضة! ترى أن الأمان فقط في داخل حضنها، دمعة ساخنة عرفت طريق العبور على وجهها البائس، صوت حطامٍ قوي قد اخترق الغرفة التي انهار بابها إثر دفع قوات الشرطة، صرخت (ريانا) في رعبٍ لترى عددًا من رجال الشرطة يدخلون الغرفة، ضمت (غصن) ابنتها لصدرها وكأنها تستعد لرحلةٍ شاقة ستكون أصعب مما خاضتها من قبل، رحلة سيدها الظلام وتاجها الظلم القابع على عاتقها منذ نعومة أظافرها حتى هذه الوهلة، ما زالت وستظل تعاني حتى تسحب الروح من جسدها، طوقت جسد صغيرتها بذراعيها

والشرطي يحاول جاهدًا سحبها بعيدًا عنها، وحينما فشل في الفصل بينهما، تدخل أحدهم لمعاونته، تعلقت الفتاة بجلباب والدتها باكية في قهر، تحاول خدش يد الشرطي بمخالبها الصغيرة لتنجو والدتها، أجل تعلم بالجرم الذي ارتكبته، وتعلم سبب وجود الشرطة لكن تظن أنها حين تحتضنها سيرأف أحدهم بحالها، لقد كانت نقطة فاصلة في حياتها، وضع الأساور الحديدية حول معصمها، وكأنها جزءٌ دائم من حياتها البائسة، حتى مع اختلاف السجان لكنه معتقل في نهاية الأمر، دفعوها في قوةٍ للخروج من الفندق حتى صعدت إلى سيارة الشرطة، صعدت لتستمع إلى صوت بكاء ابنتها المرتفع، رأتها حين هرولت خلفها، فتوسلت إلى الضابط لتصعد معها في السيارة نفسها، فهي في محافظةٍ غريبة، وستظل ابنتها هنا بمفردها إن تركوها، وافق على الفور، فمن المحتمل أن يستمع إلى شهادة الصغيرة، غادرت السيارة تاركةً خلفها هالة من الغبار إثر انطلاقها السريع، ومن خلف تلك الهالة، وقفت المالكة أمام هذا المكان لتنظر في قلقٍ وترى إن كان حضور قوات الشرطة إلى الفندق قد أثار رهبة النزلاء أم أن الأمور تسير على ما يرام، فحينما أبلغتها الفتاة التي تعمل في قسم الاستقبال برؤية صور تلك الفتاة على مواقع التواصل الاجتماعي، أسرعت لإخبار الشرطة خوفًا من أن تُتهم بالتستر على مجرمةٍ مطلوبة من جهاز الشرطة حتى وإن كانت بريئة، فهروبها في هذا الوقت، أثبت إدانتها وسلط أصابع الاتهام بمقتل أبيها نحوها...

أربعة أيام مروا عليها كأربعة أعوام، قضتهم في المعتقل الذي فضلت أن تقضي عمرها كاملًا خلف قضبانه على أن ترى ابنتها تخوض تجربتها القاسية نفسها، التي بترت بها كيانها كأنثى، فأصبحت متبلدة المشاعر وقاسية من الداخل، خاضت ورأت ما يصعب وصفه أو اختصاره في بضعةٍ سطور، فربما اعتادت الكتمان لعدم وجود الشخص الموثوق به للحديث معه، عانت دون وجود الأم التي تواسيها لتخفف معاناتها، أو شقيقة تستند إليها، تمتلئ عيناها خوفًا ورعبًا، لا توجد كلمات لوصفه، وخصوصًا حينما علمت أن الشرطة قامت بتسليمها لأهل زوجها السابق، طوال الأيام الأربعة، لم تسمح للطعام أن يمر في جوفها لتجهل مصير ابنتها القاسي بين أيدي هؤلاء القاسية قلوبهم، أغلقت (غصن) عينيها في قوةٍ لتناجي ربها في صمتٍ، يحرق القلب لسكونه قائلة:

•يا رب نجيها منهم يا رب.

جلست على بساطٍ مرتجفة، وجهها الأبيض ممتلئ بالكدمات الزرقاء، دموعها لا تجف، تسقط كأنها رفيقة لها في معتقل زوجات أبيها الثلاث، لقد حاربت والدتها للبقاء في منزل جدها لتبقى بعيدًا عن بطشهن، استندت (ريانا) إلى جذعها لتستقيم في جلستها حين مررت أصابع يدها الصغيرة على ذراعها اليمنى المصابة بخدوشٍ نالتها من زوجة أبيها الكبرى حينما كسرت رغمًا عنها أحد الأكواب،

أغلقت عينيها البنيتين في ألمٍ، وقد شعرت بالحنين لأمها، فحين تم القبض عليهن، كان لا بد من تسليمها لعائلة أبيها، ضمت ساقيها بيدها معًا لتحارب البرودة التي تتسلل إلى أنحاء جسدها، فألقت بثقل رأسها على الحائط من خلفها، بكت في قهرٍ على ما حدث لوالدتها، كانت السبب الذي دفعها للقتل، وهي الآن التي تدفع الثمن بمفردها، صوت خطواتٍ بطيئة تتجه إلى المطبخ، جعلت نظراتها مصوبة إلى بابه في ترقبٍ وخوفٍ من استيقاظ إحدى زوجات أبيها، فتفاجأت بشقيقتها من زوجة أبيها الصغيرة، تقترب منها في حذرٍ لتستدير عيناها وتفحصان الطريق في ارتباكٍ خشية أن يراها أحد، انحنت مقابل (ريانا) لتقدم لها غطاءً متوسط الحجم قائلةً في شفقةٍ تسكن معالم وجهها الحزين على حال تلك الفتاة:

•خدي البطانية دي يا (ريانا).. هتدفيكي شوية.

التقطتها منها بأصابع يدها الزرقاء لترسم ابتسامة صغيرة على ثغرها قائلة:

•شكرًا يا (مي).

بادلتها الابتسامة هي الأخرى ثم غادرت سريعًا قبل أن تراها والدتها أو شقيقها الأكبر، فمنذ وصول (ريانا) إلى المنزل منذ أربعة أيام، والجميع يقسو عليها، وكأنهم حظوا بفرصةٍ مثالية للانتقام من تلك الفتاة وأمها، جلست (ريانا) على البساط الأرضي في تعبٍ قد تمكن من جسدها الهزيل ثم دثرت نفسها بالغطاء، وأغلقت عينيها في قوةٍ

علها تتمكن من النوم للاستعداد للعمل الشاق الذي في انتظارها صباح الغد...

الضوء يتلاعب بها كالحياة التي أرهقتها، فكلما ظنت أنها ستمشي بمحاذاة التيار، تأتي موجة مخالفة فتدفعها بعيدًا عنه، المصباح المعلق على طرف السلك الكهربائي القصير، يترنح دون توقف، ما زال المشهد عالقًا في ذهنها، ما زالت تستمع إلى حديثه البغيض الذي دفعها لقتله والقصاص لما ارتكبه في حقها وحق ابنتها الصغيرة، ليست نادمة على ما فعلته، فلأجل ابنتها ستفعل أكثر من ذلك، ينتابها الذهول أحيانًا حينما تفكر فيما فعلته لأجلها لأنها أم، فكيف يفعل أبوها هذا ليتجرد من مشاعره نحوها؟!

ألم تتحرك غريزته تجاهها يومًا؟!

رفعت (غصن) عينيها لتدعو ربها في صوتٍ منخفضٍ قائلة:

•يا رب أنا ماليش حد أتسند عليه وآمنه على بنتي غيرك، أنا عملت كل دا عشانها، يا رب أحميها يا رب.

أحيانًا حينما تستجاب الدعوات، يرسل لله (سبحانه وتعالى) الشخص المناسب لتلك المهمة ليكون له ثواب أجر عمل اختاره ويناديه، فيرشده إلى مبتغاه المحدد، وكأن هذا الشخص على مقربةٍ منها، لقد ترك صوت تلامس حذائه القوي صدى صوتٍ مسموع لينذر بوصوله إلى غرفة مكتبه الحكومي، انفتح الباب أمامه، وتسابقت التحيات

العسكرية في تقديم التحية إليه، ولج إلى مكتبه في خطواتٍ متهدجة، فنزع معطف بذلته السوداء ذات التصميم الأنيق الذي يليق بوكيل النيابة ثم وضعه على مقعده الذي جذبه ليجلس عليه حين أشار إلى الشرطي بيده قائلًا:

•هات المتهمة يا ابني.

أجابه في لهجةٍ تتسم بالوقار قائلًا:

•تحت أمرك يا باشا.

فتح وكيل النيابة (صهيب علي) تقرير الطب الشرعي أمامه ليعيد قراءة ما دون به حيث نص على تطابق بصماتها مع البصمات التي يحملها سكين الجريمة، سيطر عليه شعور الاشمئزاز حين قرأ طريقة القتل وعدد الطعنات التي تلقاها هذا الأب المسكين في نظره، فتجمدت عيناه في قسوةٍ حينما تخيل أركان الجريمة كاملة، أغلق الملف ثم جذب كوب القهوة الذي وضعه العامل أمامه قائلًا حين وجه حديثه إلى من يجلس بجواره، ويترقبه في تركيزٍ واهتمام:

•افتح المحضر.

أومأ ثم بدأ بتدوين تاريخ اليوم وبعض البيانات الرسمية قبل بدء التحقيق، طرقات متتالية على الباب، جعلته يتحدث آمرًا:

•ادخل.

انصاع لأمره، ففتح الباب ثم دفعها للداخل ليلقي التحية العسكرية قائلًا:

•المتهمة يا باشا.

أشار إليه (صهيب) بالمغادرة دون أن يرفع رأسه عن هاتفه الذي يحمل رسالة رجاءٍ من زوجته السابقة لرؤية ابنتها التي تخلت عنها منذ خمسة أعوام للزواج بآخر، وحينما طلقها، عادت ترجو والدته لتقنعه بعودة ابنتها إليها لكنها لم تتمكن من إقناعه، وضع هاتفه جانبًا ثم رفع عينيه الرماديتين ليلقي نظرة فضولية على تلك القاتلة ذات القلب الجاحد، سكن الذهول ملامح وجهه القمحي حين رأى أمامه فتاة هزيلة، يبدو الانكسار على قسماتها، عيناها منتفختان من أثر البكاء، اعتاد التعامل مع أشكالٍ مختلفة من المجرمين، ويبدو على أكثرهم أنهم قد ارتكبوا الجرائم الموجهة إليهم، فعاد لثباته كي يباشر عمله، وجه أصابعه إليها قائلًا:

•اقعدي.

أصبحت كالإنسان الآلي، تتحرك حينما تتلقى الأوامر، جلست (غصن) على المقعد المشار إليه، وقد تجمدت ملامحها، ترسم في مخيلتها ما ستقابله، نقلت نظراتها إلى الصوت الرجولي المتعصب أمامها حين طرح سؤاله في حدةٍ قائلًا:

•انتِ قتلتي والدك المدعو (عباس الفقي) ب١٥طعنة؟

ما زالت تحتفظ بصمتها منذ القبض عليها وتحويلها إلى جهة التحقيق في محافظتها، ومن ثم تم عرضها على النيابة.. قال غاضبًا:

•تقرير الطب الشرعي، أثبت إنك القاتلة، فمفيش داعي للإنكار،

الحقيقة هي اللي هتختصر وقتك ووقتي.

رفعت عينيها تجاهه قائلة في إصرارٍ يغلفه القهر:

•ولو لسه فيه الروح هاقتله تاني.

سيطر على أعصابه في صعوبة حين جاهد للثبات الانفعالي حتى ينتهي من تلك القضية الصادمة ثم تساءل قائلًا:

•قتلتيه ليه؟!

سؤال صغير ومختصر لكنه يحتوي عذابًا وأنينًا، طال لأكثر من ثلاثينٍ عامًا، منذ أن أنجبتها والدتها التي ماتت فور ولادتها، سؤال زج بها إلى بئر الماضي والذكريات لتعود لمرارة ما اختبرته من قبل، يومًا تلو الآخر، وساعة تتبعها الأخرى، لحظات من الصمت اتخذتها لتعبئة قصبتها الهوائية بالهواء اللازم لإنعاشها حتى تتمكن من خوض تلك المعركة الميتة لإخراج الكلمات المناسبة التي قد تعبر عن جزءٍ بسيط مما خاضته، فتحدثت قائلة:

•من أول ما وعيت على وش الدنيا وأنا مسمعتش منه غير كلمة واحدة، كلمة بيقولها لما كنت بقوله أنا جعانة أو عايزة فلوس أجيب أي حاجة زي الأطفال اللي من سني، كان جوابه، محصلتهاش ليه؟ سايباكي تقرفي فيا أنا ناقص، طول الوقت كان بيدعي عليا بالموت، عشت معاه أسوأ طفولة.

تلألأ الدمع في عينيها المنكسرتين، فرفعت إصبعها لتزيح ما علق بأهدابها ثم أكملت في مرارةٍ قائلة:

•حرمني من التعليم عشان مصاريف الكراسة والقلم اللي هيجيبهم، طول عمره كان بيحرمني من كل حاجة بحجة إنه معهوش، رغم إنه بيشتغل ومرتبه كويس بس هو طول عمره بخيل ومش شايف غير نفسه، كنت بخاف أطلب حاجة لإني عارفة عقابه هيكون ايه، مهو مكنش بيضربني غير بالحزام....

قاطعها (صهيب) قائلًا:

•يعني انتِ جاية تنتقمي من بخله دا بعد ثلاثين سنة؟!

رفعت عينيها تجاهه لتعترض موضحة:

•أنا صبرت على كل دا ومهمنيش، ابتديت أقنع نفسي إنه معهوش وأنا على ثقة إنه معاه اللي يكفينا وزيادة، مكنش عندي مشكلة في كل دا، لحد ما في يوم رجع البيت وقالي...

....

•(غصن).. (غصن).

ناداها في حماسة، فخرجت من المطبخ لتجفف يديها من قطرات المياه المتساقطة حينما كانت تنظف الأطباق، دنت منه قائلة في دهشة:

•أيوه يا بابا، في حاجة؟!!

جلس على الأريكة المتهالكة مشيرًا إليها بالاقتراب قائلًا في حماسة:

•خلاص يا بنت المحظوظة، هتسيبي الفقر دا كله وهتعيشي عيشة عنب.

ضيقت عينيها لتتساءل في دهشةٍ قائلة:

•عيشة ايه؟! مش فاهمة حاجة!

أجاب مبتسمًا في مكر:

•جالك عريس متريش وجاهز من مجاميعه.

رفعت حاجبيها في دهشةٍ، وقاطعته قائلة:

•عريس ايه يا بابا؟! أنا لسه مكملتش ١٥سنة!

أجابها دون اكتراث كأنه يتعمد تجاهل ما ستقوله:

•وماله ياختي، في اللي بيتجوز أصغر من كدا.

ثم استطرد في كلماتٍ، حاول قدر الإمكان جعلها لطيفة كي لا تتخذ الأمور منعطفًا آخر:

•وبعدين يا بت هو أنا جايبلك أي عريس؟! بقولك دا متريش وهيجيب لك شقة وشبكة، عمر أهلك ما يحلموا بيهم.

بدا اليأس على ملامحها لأنها تعلم أنه لا مفر من قرارٍ اتخذه والدها، كانت تبكي في داخلها على طفولةٍ لم تعشها يومًا، ربما تحظى ببعض الأمان بعيدًا عنه، فهي أيضًا لا تحبذ البقاء معه في منزلٍ واحد، فلا تنكر أنها لم تحبه يومًا، وتتعجب حينما ترى فتاة صغيرة تمسك بيد والدها في بهجة، لقد أصبحت تمقت الآباء جميعًا، فتساءلت في استسلامٍ قائلة:

•ودا مين دا؟

انفرجت شفتاه ليبتسم في مكرٍ حين شعر أنه بدأ بتحقيق مخططه،

فأجابها قائلًا:

•المعلم (ممدوح فرج).

صعقت لهول ما سمعت، فخرج صوتها المهتز في خوف:

•الجزار اللي على رأس الشارع؟!

لاحت على وجهه ابتسامة ماكرة حين ربت على ساقيها قائلًا:

•الله ينور عليكي يا بت، ما انتِ ناصحة أهو.

جحظت عيناها في صدمةٍ، فنهضت عن الأريكة لتحدق إليه في ذهولٍ، جاهدت لخروج صوتها قائلة:

•دا أكبر مني!

جذبها في قوةٍ لتجلس بجواره مجددًا مشيرًا إليها بيده ليحذرها قائلًا:

•وماله، أكبر منك.. أكبر منك.. المهم الخميرة اللي وراه، وأهو كلها سنة ولا اتنين ويتكل على الله وتورثيه.

أجهشت بالبكاء قائلة:

•بس دا متجوز اتنين يا بابا!!

أجابها دون اكتراثٍ لمشاعرها البكر الرقيقة:

•وانتِ التالتة وبإيدك تكوني الأخيرة، وميكونش في بعدك، وبعدين دول كلهم كبار في السن، وانتِ الصغيرة، يعني سهل تبعديه عنهم يا خايبة.

قالت في رجاءٍ عله يشفق على حالها المزري:

•أنا لسه صغيرة وآآآ...

بترت كلماتها حينما انهال عليها بالسباب ليخبرها أنها ستتزوجه رغمًا عنها، حاولت (غصن) إقناعه لكنه كعادته أجابها بضرباتٍ قاسية، يومًا تلو الآخر حتى أذعنت تلك الصغيرة لما أراد، فباعها بثمنٍ بخس لقاء ما يطلق عليه المهر، قبض المال من الرجل العجوز الذي سيتزوج قاصرًا ليتلذذ بها كأنها ثمرة من الفاكهة المحرمة عليه، فود أن يسد جوعه بما حرم منه، فلا بأس إن ضحى ببعض المال في سبيل نيل مبتغاه، ارتدت فستان زفافها الأبيض، وفي داخلها شعور بالقهر يملأ حياتها التعيسة، المكان يعج بضوضاء الموسيقى الصاخبة، ارتجف قلبها العذري حين شاهدت زوجاته، تذكر تفاصيل تلك الليلة جيدًا، أعادت إضرام النيران بقلبها، تلك الليلة المشؤومة لطفلة لم يتعد عمرها الخمسة عشر عامًا، ما زال كابوس هذه الليلة يلاحقها كأنها كانت في شجارٍ عاصف يستميلها لتنجرف عن سطر الطفولة المتوازي نحو سطر البراءة، فقدتهما في ذلك اليوم المخادع بزينته وزغاريد النساء المباركات لهذا الزواج المفروض عليها قصرًا لينتهي بها الحال في غرفة نوم مع رجلٍ في مثل عمر والدها، وهي كالكتاب الذي لا يحوي مفردات تمنحه تحليل كلمات وأفعال هذه الليلة، لا تعي المطلوب منها أو ما سيحدث بالتحديد، ألا يكفيها نظرات نسائه وأبنائهن الذين يكبرونها سنًّا؟!

صوت صرير الباب المزعج، كان كإنذارٍ لها بولوج هذا الغريب عنها إلى غرفتها، انتبهت (غصن) إليه، فارتعش جسدها رعبًا من نظراته

المسلطة تجاه جسدها، بدأ هذا البدين بنزع ثيابه حين أغلق باب الغرفة كأنه يستعد لتناول وجبة مفضلة إليه، ابتلعت مرارة حلقها في صعوبةٍ لتحاول ضبط انفعالاتها، فخرج صوتها الذي يكاد يسمعه:

● انت بتعمل ايه؟!

اقترب منها مبتسمًا ثم أزاح عنها غطاء رأسها الأبيض لينكشف شعرها القصير، تراجعت للخلف خطوة، وقد بدأت تشعر بالخوف تجاه هذا الشخص المدعو (زوجها) خصوصًا حينما بدأ بفتح سحاب فستانها ليجرد تلك الفتاة الصغيرة من ملابسها دون اكتراثٍ لبراءتها ليختتم هذا اللقاء بصرختها المداوية لآلامٍ اخترقتها حينما هتكت عذريتها على فراشٍ لا يناسب سنها الصغير، اشتراها ليروي نزواته تجاه فتاة صغيرة عذراء حتى أنه لم يكلف نفسه عناء مواساة دمعات تلك الصغيرة فيضمها لصدره، بل تركها تتأوه ألمًا باكية لما تعرضت له من ألمٍ نفسيٍّ وجسدي، تركها واستدار بجسده نحو الجهة الأخرى ليرتفع صوته المقزز المعلن عن نومه العميق بينما ظلت طوال الليل جالسة أرضًا، تحتضن جسدها الهزيل خشية أن يعود للاعتداء عليها من جديد، ختمت تلك الذكريات المؤلمة بالدمع الحارق، لا تعلم أي جزءٍ بالتحديد ستبكي عليه! أتبكي على رجائها المتكرر لعودتها لوالدها القاسي ذي القلب المتحجر؟! ورجاء آخر للابتعاد عنها كي لا يدنس براءتها.. لكن صوتها لم يكن مسموعًا إليه، فكانت تعاني نهارًا من تربص زوجاته بها بالأحاديث المستفزة، وليلًا حينما يعود هذا

اللعين من العمل ليستنزف ما تبقى من طاقتها الهزيلة بقضاء ليلةٍ مكتملة الأركان حريصًا على أن يستخدم قواه الكامنة ليفرض رجولته المبتورة على تلك الفتاة التي لا تعي، فكانت تقضي ليلها باكية، حاولت كثيرًا الإلحاح على والدها لينقذها من براثن هذا الذئب البشري الذي استباح براءتها لكنه خيب آمالها حين شاهدته عائدًا من عمله ليقدم لأبيها أكياسًا مغلفة من اللحوم الطازجة، كانت تتعجب لموافقة أبيها على زواجٍ كهذا لكن الآن باتت الأمور واضحة كسطوع الشمس، فأصبحت تمقته أكثر من قبل، كرهته وكرهت رؤيته، استسلمت للواقع، فتقبلت العيش في هذا المعتقل القاسي...

دمعة قهر وانكسار تختتم بها هذا الجزء المتعلق بأول أيام عيشها مع زوجها الأرعن، لم تتمكن من استكمال حديثها، فكبتت شهقاتها لتزيح دمعاتها الساكنة داخل أحزان عينيها، توقف قلم سكرتير النيابة عن تدوين الأحداث المسموعة بدفتره ليتطلع نحو رئيسه، فوجده شارد الذهن، يتأملها في أسفٍ لسماع الجزء الأول من قصتها، لقد كان غاضبًا حين شرع في قراءة الجناية المدونة أمامه لكن عند سماع ما خلف تلك الكلمات المختصرة، طعن في حقيقة الواقع القاسي..

حمل (صهيب) كوب المياه الموضوع على الصحفة بجوار فنجان قهوته ليضعه أمامها قائلًا في رفق:

- اشربي.

ارتشفت الماء إذ كانت في حاجةٍ ماسة إليه ثم وضعت الكوب على

الطاولة أمامها، فتساءل في اهتمامٍ قائلًا:

•أحسن دلوقتي؟

نظرت إليه لتبتسم في سخرية، سؤاله الغريب لم تختبره قط، لم يصادف أن سألها أحدهما عن حالها، انتصب في جلسته ليستعيد ثباته المهني ثم عاد ليطرح سؤاله من جديد قائلًا:

•وبعدين حصل ايه؟

تحدثت (غصن) لتعبر عما يعانيه قلبها قائلة:

•استحملت يا باشا وعشت معاه، أهو كان أرحم من أبويا ألف مرة، صحيح مكنتش بسلم من لسان مرتاته وأعمالهم فيا، بس حاولت إني أعدي وأعيش لحد ما عرفت بحملي وحاولوا يسقطوني أكتر من مرة.

ثم ابتسمت في ألم لتضيف قائلة:

•كانوا خايفين أجِيب ولد يقاسم ولادهم في الورث، ومهدوش غير لما عرفوا ان في بطني بنت.

تنهدت في حزنٍ ثم استنشقت الهواء عله يخفف حدة آلامها قائلة:

•كنت بعد الأيام عشان أشوفها وأشيلها بين ايديا، كان عندي ثقة في ربنا إنها العوض عن كل العذاب اللي عشته، كملت واستحملت عشانها، كأنها طاقة النور اللي نورت حياتي اللي انطفت من اللحظة اللي اتولدت فيها، عشت معاه عشانها هي.

وكأنه تناسى تمامًا مهنته كشرطي، فتأثر بحروف كلماتها المؤلمة

قائلًا:

•كملي.

استطردت باكية:

•الورث اللي أبويا كان طمعان فيه لما جوزي توفى مخدتوش زي ما هو كان راسم، بمجرد وفاته عياله طردوني من البيت أنا وبنتي، وطبعًا كلفت محامي يرفع لي قضية عشان يرجع لي حقي في الميراث، بس اللي عرفته بعد كدا إنه كان كاتب كل حاجة باسم عياله.

ولاحت ابتسامة ساخرة على شفتيها لتقول:

•مسابليش أنا والبنت أي حاجة، كان شايف إن المهر اللي دفعه كفاية عليا.

شعر (صهيب) بالشفقة نحوها، لطالما كان حازمًا في عمله، بارعًا في اكتشاف خيوط الجريمة، المعروف عنه عدم تساهله مع أحد، يمقت الظلم، لذا يخشاه المجرمون، لكنه الآن يشعر أنه شخص آخر، يعيش في أركان الجريمة منذ البداية، ورغم أنها مختصرة لكنه التمس كل كلمة قالتها تلك المرأة، ليست فاتنة لتجذبه إليها لكن عينيها تقصان ما تعرضت له من خذلانٍ وانكسار، يعلم أنه سيطبق القانون في النهاية حتى وإن كانت والدته التي تجلس أمامه، فالكلمة الأخيرة ستنطقها المحكمة، عاد من شروده، فاعتدل في جلسته حين طرح سؤاله التالي قائلًا:

•بعد ما طردوكي، من المتوقع أن مكانش في مكان تروحيه غير

إنك ترجعي تعيشي مع أبوكي من تاني، وهو أكيد مكانش متقبل دا فقتلتيه، صح؟

ثم تفحص الأوراق أمامه مدققًا في دهشةٍ ليضيف قائلًا:

•بس على حسب المعلومات اللي قدامي، إنك قضيتي تسع سنين في بيت والدك بعد وفاة جوزك، ايه اللي خلاكي تفكري في قتله بعد المدة دي كلها؟!

بدا هذا اليوم مفتاح أبواب الماضي المغلقة، استرجاع تلك الذكريات المؤلمة هو اختبار مفروض، لا تنكر أنها في حاجةٍ إلى الحديث أو رؤية الشفقة في عيني أحدهم.

*****

حملت صغيرتها ثم صعدت الدرج الجانبي لمنزلها، طرقت الباب كثيرًا، وحينما لم تجد ردًّا، جلست على الدرج في انتظار عودته من العمل، مرت ساعة كاملة، وما زالت تجلس في الخارج، غلبها النعاس فأرخت رقبتها على رأس صغيرتها التي تحتضنها، صوت خافت جعلها تفتح عينيها في صعوبةٍ، فنهضت مبتهجة حينما وجدت أباها عائدًا من الخارج، لفت ذراعيها حول خصر ابنتها في حذرٍ لتتجه إليه لاهثة قائلة:

•بابا.

نقل نظراته المسلطة على ثقب الباب ليتفاجأ بها أمام منزله في جوف الليل، فقال في دهشة:

•بتعملي ايه هنا انتِ وبنتك الساعة دي؟!

أشارت إليه في إرهاقٍ، تحاول الحفاظ على توازنها حتى لا تسقط ابنتها ثم قالت:

•طيب افتح الباب نتكلم جوا.

وضع المفتاح في الثقب الصغير ثم فتح الباب ليشير إليها في تذمرٍ قائلًا:

•ادخلي ياختي.

ولجت لتضع صغيرتها على الفراش الصغير في الغرفة التي كانت تقطن فيها من قبل وتدثرها، فلحق بها ليتمتم في ضيقٍ قائلًا:

•بتغطيها كمان؟! انتِ ناوية على بيات ولا ايه؟!

نظرت إليه في انكسارٍ لتجيب قائلة:

•طردوني بره البيت بعد ما الوصية اتفتحت ولقوه كاتب كل حاجة باسمهم هما، وأنا وبنتي ما نملكش أي حاجة.

صُدم صدمة بالغة، عقدت لسانه ليتحدث في صعوبةٍ قائلًا:

•يعني انتِ طلعتي من المولد بلا حمص؟!

رمقته في احتقارٍ ثم قالت في لهجةٍ ساخرة:

•لأ، طلعت بالمهر اللي أخدته منه، أهو ينفع اليتيمة دي من بعده.

انكمشت تعابير وجهه ليرفع صوته في غضبٍ، ويثور قائلًا:

•مهر ايه يا ام مهر؟! ما خلاص اتصرفوا من زمان واللي كان كان.

ثم نهض ليشير إليها في نظرات ثاقبة قائلًا:

•اسمعي أما أقولك، إذا كنتِ جاية تعملي الشويتين دول عشان أقولك خليكي هنا انتِ وبنتك، تبقي غلطانة، انتِ هتاخديها وترجعي تعيشي في شقتك.

سيطرت الدموع على عينيها، وقالت في صوتٍ متقطع من أثر البكاء:

•أرجع شقتي فين؟! بقولك طردونا يا بابا وماليش حد أروح له أنا وبنتي غيرك.

عقد حاجبيه ليصرخ في غضبٍ قائلًا:

•ومين اللي هيصرف عليكي وعليها إن شاء الله ياختي؟ المشرحة مش ناقصة قتلة، دا يدوب اللي جاي على قد اللي رايح.

أغلقت عينيها علها تتحمل كلماته القاسية ثم قالت باكية:

•يا بابا أنا ماليش حد غيرك، هاروح فين أنا والبت بس؟! وإذا كنت عامل على المصاريف، فأنا هاشتغل واجيب لها كل طلباتها من غير ما تساعدني في حاجة.

حك مقدمة رأسه ليفكر ثم قال في مكرٍ:

•إذا كان كدا ماشي، ميضرش ما دام كمان هتدفعي إيجار الشقة اللي هتقعدوا فيها، ما أنا حيلي اتهد والشغل مبقاش زي الأول.

اندفعت الدماء إلى عروقها حين سمعت كلماته المزرية، خرج من الغرفة حينما انتهى من قول ما يريد، فأغلق بابها خلفه لتجلس (غصن) أرضًا بجوار ابنتها، تبكي من قسوة أبيها الغير طبيعية،

تهاجمها الحياة من الاتجاهات كافة، فلم تعد تجد مخرجًا مناسبًا لما تمر به، فما زال أبوها يستغلها كالبضاعة المربحة، فلا بد أن تدفع إيجار منزله مقابل عودتها للعيش معه، تدفقت دمعاتها الساخنة على وجنتيها لتقص ما حدث في هذا اليوم المؤلم، يوم عودتها من سجنٍ لتدخل سجنًا آخر، أشفق عليها (صهيب) فلهجة صوتها المنكسر قد نجحت لتعبر عن معاناتها، ربما لم تقص سادية زوجها معها، فاكتفت بجزءٍ قليل مما قالته، وقالت في صوتٍ مهزوز:

•مكنش بيفكر غير في نفسه، والاستفادة من وجودي في البيت، إني أدفع إيجار الشقة.

حاول (صهيب) التماسك قدر الإمكان ليؤدي عمله، من المستحيل أن يتهاون القانون معها، من المحتمل أنه كان يشعر ببعض الشفقة حينما يستمع للدافع وراء ارتكاب تلك الجرائم لكنه في نهاية الأمر يتخذ الإجراءات اللازمة دون تحيز لأحد الأطراف، يحقق في القضايا وسكرتير النيابة يسجل الحوار المطروح في المحضر، فالأمر الأول والأخير للمحكمة، سألها في اتزانٍ يصاحب لهجته الثابتة:

•دا اللي دفعك لقتله؟

حدقت إلى عينيه المتطلعتين إليها في ثباتٍ كأنها تكتشف إجابة صادقة، فاسترسل في حدةٍ قائلًا:

•المحضر مش هيتقفل غير بتفاصيل كاملة للواقعة، يا ريت تساعدينا.

امتناعها عن الطعام، جعل جسدها الهزيل يفقد آخر محاولته للبقاء واعيًا، شعرت بآلام جسدها، انتابها دوار حاد، جعل الغرفة تدور من حولها، لم ينقصها العودة لماضيها المؤلم مع هذا الضغط النفسي المتزاحم، ألا يكفيها ما تلقاه من عذابٍ ذهنيٍّ مؤلم حينما تتخيل ما يحدث لابنتها الآن؟! رفعت أصابعها المرتجفة لتمررها في رفقٍ على جبينها، ازداد الألم حتى أصبحت عاجزة عن المقاومة، ترنح جسدها على المقعد، فارتطمت أرضًا، فزع (صهيب) من تصلب جسدها المخيف، رفع رأسها في حذرٍ بين يديه ليشير إلى الشرطي في حزمٍ قائلًا:

•هات مية بسرعة.

انصاع لكلماته، فخرج مسرعًا ليحضر كوب المياه ثم قدمه إليها، وضع (صهيب) رأسها على ساقيه ثم جذب بعض قطرات من المياه لينثرها على وجهها في رفقٍ لتستفيق في بطءٍ، انفلتت من بين شفتيها بعض التأوهات لتحاول التغلب على الدوار الحاد، تلك الفتاة تثير شيئًا غامضًا في داخله، يشعر بالانجذاب إلى عينيها، ورغبت أذناه في سماع صوتها، لقد حاول جاهدًا محاربة ما أصابه منذ سماعها، لا يعلم إن كان يشفق على حالها أم أن هناك شيئًا لامس أبواب قلبه المجروح! ما زال يشعر بألم الخذلان حينما تركته زوجته لتتزوج بآخر، لطالما كانت تردد كلمات العشق ليكتشف أنه عشق زائف، هدمته أول عاصفة عابرة، تألم لأجل ما فعلته به وبطفلتها الصغيرة حينما

قررت التخلي عنها، وحينما انفصلت عن زوجها الثاني، عادت من جديد تطلب ابنتها كأنها دمية تحركها بأصابعها وقتما تشاء، أخفض نظراته المنسجمة لتجلس على المقعد ثم مد يده إليها بكوبٍ من عصير الليمون قائلًا في هدوءٍ:

•اشربي دا وهتبقي كويسة.

تناولته (غصن) في ارتباكٍ، فمن المتوقع المعاملة الجافة من الشرطة، استيقظت من شردوها البديهي على نبرة صوته الخشن ليتساءل في اهتمامٍ قائلًا:

•لو لسه تعبانة ممكن أعرضك على دكتور.

أومأت نافية لتجيب في لطفٍ قائلة:

•مفيش داعي، أنا كويسة.

أكد بعرضه السخي، وخصوصًا برؤية علامات المرض البادية على قسمات وجهها المتعب:

•متأكدة؟

نظرت إليه لتجيب قائلة:

•أحسن من الأول، شكرًا لحضرتك.

أومأ ثم أشار بيده تجاه السكرتير الذي يدون خلفه كل شاردة وواردة قائلًا في لهجته الصارمة:

•هنقفل المحضر بعدين لحد ما تتتحسن.

أغلق الدفتر أمامه ثم ترك قلمه على سطحه ليغادر على الفور مثلما

أخبره، تابعته (غصن) في تعجبٍ يتسلل إلى معالم وجهها، فحاولت السيطرة على ثبات انفعالها، فتح (صهيب) أزرار قميصه ليشمر عن ساعديه، تملك الخوف جسدها، فبدأت الشكوك تراودها تجاه نيته، فكل من قابلته قد استغل ضعفها، فأصبح انطباعها بالسوء عن الرجال، ترى أنها سلعة رخيصة بالنسبة إليهم، طرقات الباب المتتالية، جعلت حواسها مستيقظة، فإذا بالشرطي يدخل حاملًا أكياس بيضاء مغلقة، وضعهم على سطح المكتب أمامه ثم خرج، التقط (صهيب) الأكياس ليُخرج منها الشطائر الساخنة ثم وضعها على مقربةٍ منها مشيرًا إليها في لطفٍ قائلًا:

•كلي عشان الدوخة تروح.

وزعت نظراتها بينه وبين الطعام الموضوع أمامها في توتر لتقول هامسة:

•شكرًا ماليش نفس.

تخلى عن مقعده ثم اقترب ليجلس مقابلها جاذبًا إحدى الشطائر ليتناولها أمامها قائلًا:

•انتِ في قسم الشرطة، يعني الأفكار اللي بتطاردك دي ملهاش وجود هنا.

أطرقت في حرجٍ، فتابع حين قدم إليها الطعام قائلًا:

•كلي عشان متقعيش من طولك.

أخذته في خجلٍ ثم شرعت في تناوله، فأبعد نظراته عنها حتى لا

ترتاب لأمره، قضمت قطعة صغيرة ثم تناولتها على مهلٍ كأنها لا تمتلك شهية للطعام، راقبها (صهيب) في نظراتٍ متفحصة، وجاهد لكبت السؤال المتردد على شفتيه لكنه تغلب عليه ليقول متسائلًا:

•خايفة؟

نظرت إليه، فاستطرد موضحًا:

•يعني قضية زي دي أقل حكم فيها ١٥ سنة، لو مكانش مؤبد أو إعدام.

أجابته دون اكتراثٍ قائلة:

•عمري ما خفت من الموت، ولو على الحبس، فأنا عايشة فيه من أول ما اتولدت.

كان حذرًا في اختيار كلماته حتى لا يتسبب في جرحها، فبدا مترددًا بعض الشيء حين استرسل قائلًا:

•بس اللي شايفه في عيونك غير كدا، شايف ضعف، خوف، انكسار!

تطلعت إليه وقد خانتها دمعاتها اللامعة في حدقتيها، فقالت في ألم:

•الخوف اللي في عيوني دا مش من اللي جاي، الخوف دا على بنتي اللي معرفش مصيرها هيكون ايه مع ناس ميعرفوش الرحمة، والكسرة اللي جوايا دي سببها إني بعد كل اللي عملته دا عشان أحميها، في الآخر وقعت في ايدين اللي مبيرحمش، أما ضعفي لأني عاجزة عن مساعدتها إنها تتحرر من القيود اللي لسه مكتفاها، ولو أنا قدرت أخلصها من ظلم أبويا، فمش هقدر أخلصها من ظلم

مراتات أبوها.

جادلها في رفقٍ قائلًا:

•والخلاص بالنسبة الك بالقتل؟

ظلت ملامحها جامدة بعض الشيء لتجيبه في ابتسامةٍ باهتة، تخفي ما يجول في خاطرها قائلة:

•أوقات الحياة بتحطك في مواقف، قراراتك الشبه مستحيلة متاحة فيها، ولو الذنب اللي ممكن تحسه هيكون فرصة لأقرب حد ليك مش هتتردد ثانية واحدة إنك تجازف وترتكبه.

أصابته الدهشة لكلماتها الغامضة، لوهلةٍ تناسى عمله، فشعر بالضياع، كلماتها قد لامست أوتار أوجاعه، كشفت عن الجزء المظلم بين الطمأنينة والقلق بالبوح حتى تمزق قلبه وتلاشت رؤيته، عاد لأرض واقعه ليعنف ذاته، فلا بد أن يكون صارمًا في التعامل مع أي مجرم لكنه قد يلين حينما يرى أحدًا في حاجة إلى المساعدة، وهي مريضة للغاية، جذب (صهيب) معطفه الموضوع على المشجب ليرتديه، ولج الشرطي، فأدى تحيته ثم تساءل مشيرًا إليها:

•أرجع المتهمة الزنزانة يا باشا؟

جذب مفاتيح سيارته وهاتفه، لقد تركت مقعدها ووقفت تستعد بجسدها الهزيل للعودة إلى القبر المظلم، خطا تجاه باب الخروج، فأجابه دون التطلع إليها:

•لأ، خدها أوضة الظابط النبطشي، ومتخليش حد يتعرض لها.

أدى تحيته قائلًا في انصياعٍ:

•اللي تؤمر بيه سعادتك.

وبالفعل جذبها من ذراعها ليتجه إلى الغرفة القابعة في نهاية الردهة الطويلة، أشار إليها بالدخول، فولجت في تردد، صوت غلق باب الغرفة، جعل جسدها ينتفض فزعًا، فتفحصت عيناها أركان الغرفة، وحينما أصبحت بمفردها، بدأت تتنفس طبيعيًّا، رفعت قدميها الثقيلتين عن الأرض لتتجه إلى الطابق السفلي من السرير، فكانت الغرفة تحوي ثلاثة أسِرّة مكونة من طابقين، يبدو أنها غرفة مخصصة للضباط المخصص ساعات عملهم في الليل، تمددت (غصن) عليه لتبسط جسدها المتصلب، شعرت بالبرد يجمد جسدها، فجذبت الغطاء لتستلقي أسفله، حاولت النوم كثيرًا لكن هرب عنها سلطانه، فظلت مستيقظة طوال الليل، شاردة في هذا الشرطي الغامض الذي مد لها يد المساعدة لأنها لم تعتد ذلك، جرفها التفكير لتذكر ابنتها، فعاد الخوف ليمزق نياط قلبها رعبًا مما سيحدث لها...

توقفت سيارته أمام إحدى البنايات الفاخرة، فهبط منها ليفتح بابها الخلفي ثم أخرج الحقيبة الكبيرة التي تغطي جسد الدمية الجميلة، دخل المصعد ثم ضغط على زر الطابق المقصود ليصعد به سريعًا إلى الأعلى، وحين توقف ولج ليتسلل على أطراف قدميه خشية أن تتمسك به، فلم يتمكن من مفاجأتها بما يحمله، وجدها تجلس في الردهة على الأريكة لتشاهد التلفاز، فكاد أن يخيفها لكنه تفاجأ بصوتها الرقيق

الذي تحرر دون التطلع إليه:

•وعدتني هتخرجني، وكالعادة راجع متأخر.

استقام في صدمةٍ من شعورها بحركته ثم اقترب (صهيب) ليقف أمامها في ذهولٍ قائلًا:

•عرفتي ازاي اني رجعت؟!!

منحته تلك الفتاة صاحبة الجدائل المنظمة نظرة ثاقبة لتجيبه في حنقٍ قائلة:

•مش مهم، المهم إنك رجعت متأخر ومفيش خروج.

حك جبينه لشعوره بالحرج، فقد وعدها بالتنزه قليلًا لتتعقد الأمور رغمًا عنه بسبب عمله، فقال وقد رسم ابتسامة جميلة على شفتيه:

•معلش يا حبيبتي، كان عندي شغل.

فأجابت (مرين) في غضبٍ قائلة:

•خلاص حفظت إجابتك اللي معندكش غيرها.

وتركته واقفًا محله ثم غادرت إلى غرفتها سريعًا في حزنٍ من الوحدة التي تعانيها في بيت أبيها، وُضعت يد العون على كتفه، فاستدار مرددًا دون أن يرى من خلفه:

•سامعة يا ماما بتكلمني ازاي؟!

أجابت السيدة (نسرين) لتشير إلى خطورة المرحلة التي تعيشها ابنته قائلة:

•معلش يا حبيبي، هي بس تلاقيها أخدة على خاطرها منك، عشان

انت وعدتها إنك هتخرجها النهاردة، وانت كمان لازم تيجي على نفسك عشانها، مهما كان البنت مكسورة باللي أمها بتعمله معاها.

تنفس في عمقٍ محاولاً السيطرة على ذاته، استغرق الأمر دقيقتين ليتحرك بعدهما تجاه غرفة ابنته، طرق باب الغرفة، وحين استمع إلى إذن الدخول، ولج ليجدها تجلس على الفراش حاملة الوسادة على ساقيها وتعبث بأصابع يدها في حزن، رق قلبه، فجلس محدقًا إليها ثم رفع يده ليجبرها على التطلع إليه بالتحكم في وجهها، ضغط على زاوية شفتيها ليرسم ابتسامة مصطنعة على وجهها، فأوضح لها ما يخص عمله قائلًا:

•حبيبتي، أنا ظابط شرطة، يعني مش باشتغل في شركة ولا بنك، طبيعي إني مقدرش أمشي في الميعاد اللي شايفه يناسبني!

تطلعت إليه في انزعاجٍ، فقال مداعبًا الدمية:

•بصي جبت لك ايه.. عشان تعرفي بس إني مش ناسيكي.

نظرت إلى الدمية لترتسم على شفتيها ابتسامة واسعة، التقطتها من بين يديه لتتأملها في سعادةٍ ثم احتضنته في بهجةٍ، بدت بتبدل حالها الغريب قائلة:

•انت أحسن أب في الدنيا دي كلها.

ضمها إلى صدره في سعادةٍ ليطبع قبلة صغيرة على جبين ابنته ذات العشر سنوات هامسًا:

•وانتِ أجمل حاجة في حياتي.

انطلق صوت طرقات الباب الخارجي ليُفتح بعد ذلك استقبالاً للضيف القادم، تأهب لوصول صديقه، الذي أرسل إليه رسالة ليخبره برغبته في لقائه، فانحنى مقابلها ليشير إليها بكتفه العريض قائلًا:

•حبيبتي هاشوف أنكل (أيمن) وراجع، ايه رأيك تاخدي عروستك وتطلعي تلعبي بيها فوق مع (تاج) بنت عمك؟

أومأت في حماسة ثم حملتها بين ذراعيها وهرولت راكضة للأعلى، أما (صهيب) فاتجه إلى غرفة استقبال الضيوف ليجد رفيقه في انتظاره ليعلم سبب حضوره في هذا الوقت المتأخر...

كتاب الماضي قد نبشت صفحاته ليعود من جديد، فُتحت أول صفحات أنينه ليوقظ في داخلها ذكريات، تتألم كلما حاولت تذكرها لكن القدر قذفها الآن داخلها، فابتلعتها كالوحش المخيف، انهمرت دموعها لترسم على سقف الغرفة الذي تتأمله شاشة كبيرة، تعرض لها ما أرادت نسيانه بشتى الطرق، حتى وإن حاولت غلق عينيها كي لا ترى ما يوجع قلبها، فتذكر تلك اللحظات المقززة، صار قدرًا...

*****

انتهت من إعداد الطعام ثم جلست على المقعد في الردهة أمام التلفاز، فإذا به يفتح باب الشقة ويتسلل نحو الداخل على أطراف أصابعه كأنه على موعد مع فتاة الليل المنبوذة، وكعادته قبل أن يغلق باب الشقة، يتطلع يمينًا ويسارًا حتى يطمئن قلبه أنه لم تنتبه إليه إحدى زوجاته، عقدت حاجبيها غاضبة حينما وجدته أمامها، تمقت رؤيته ونظراته

المقززة إليها، اقترب منها ليخلع ثيابه مبتسمًا ابتسامة واسعة تكاد تصل إلى أذنيه، جلس بجوارها على الأريكة ثم أمسك يدها قائلًا في مكر:

•سمعت إنك تعبانة، فقلت أطلع أطمن عليكي.

جذبت (غصن) يدها من بين قبضته لتجيبه على مضضٍ قائلة:

•كويسة الحمد لله.

ثم نهضت لتتجه إلى المطبخ كمحاولةٍ للهروب من مجالسته الكريهة، فقالت في لهجةٍ خالية من التعابير:

•هاحضر لك الغدا.

منعها من الانصراف حينما أمسك بيدها ليخبرها في اقتضابٍ قائلًا:

•هاكل مع (حمدية) والعيال.

ليخفض صوته في مكرٍ ناظرًا إلى باب غرفة نومها المفتوح:

•تعالي بس عايزك في كلمة قبل ما البومة ترن عليا في المحل عشان الغدا.

ابتعدت عن الاتجاه الذي يدفعها إليه عنوة، فحتى حينما يأتي لرؤيتها، يأتي خلسة، تشعر أحيانًا أنه تزوجها لأجل الفراش، فحتى الطعام لا يتناوله معها، يأتي فقط من أجل رغباته الدنيئة، فنزعت رداء صمتها الطويل قائلة في تهكمٍ:

•أنا تعبانة زي ما سمعت قبل ما تطلع لي.

أمسكها مجددًا محاولًا نزع ملابسها قائلًا في ابتسامة جريئة:

•تعالي بس ونشوف موضوع تعبك دا بعدين.

دفعته بعيدًا عنها في شراسةٍ، فغلت دماؤها لتصبح ثائرة مندفعة من برود هذا الجليد، وصاحت قائلة:

•هو انت ايه مبتحسش؟! باقولك تعبانة مش قادرة، وبعدين أنا عايزة أعرف انت متجوزني ليه، عشان تتسحب كل يوم وانت طالع لي ولا عشان مزاجك؟ وآخر همك إنك تعرف مالي أو ايه اللي فيا، دا انت حتى الأكل عمرك ما كلت معايا عشان ست (حمدية) وست (نعمات) هيزعلوا منك.

هوى على وجهها بصفعةٍ قوية، جعلت الرؤية مشوشة أمامها ثم لف يديه الغليظتين حول جلد رقبتها الرقيق ليضغط عليه ويرغمها على التحرك معه للداخل، كادت تختنق وبدت كمن تلقى حتفها، فما كان عليها سوى أن تجبر قدميها على التحرك مثلما يسوقها، دفعها على الفراش ثم نزع القِشاط عن بنطاله ليهوي به عدة مرات على جسدها الهزيل، عادت لترى نسخة والدها أمامها من جديد لكن تلك المرة أشد قسوة، حاولت أن ترجوه كي يتوقف لكن صوتها الهزيل تحجر داخلها حينما قال في وضوحٍ صريح بعدما جذبها لتقف أمامه:

•أيوه أنا اتجوزتك عشان مزاجي، أمال دافع لأبوكِ المبلغ دا ليه؟ مش عشان تكيفيني.

ثم مزق ثيابها لينظر إليها نظرة شهوانية قذرة ويكمل كلماته الدنيئة قائلًا:

•بمخك دا هتجوزك ليه؟! ناقصني عيال؟!
وألقاها في إهمالٍ على الفراش مجددًا ثم اقترب منها ليسترسل حديثه المحطم لروحها قائلًا:
•أنا وافقت أدفع فيكِ المبلغ دا عشان كيفي ميشوفوش إلا واحدة صغيرة في السن، وتكون موجودة وجاهزة في الوقت اللي أنا أختاره، ولو مش فاهمة دا، أخليكي تفهميه بطريقتي يا حلوة.
واعتدى عليها متعمدًا إلحاق الضرر بجسدها معاقبةً لها عما قالته وفعلته، أراد أن يعلمها أنه سينال مبتغاه شاءت أم أبت، انقضت الدقائق ليتركها ملقاة محلها ثم ارتدى ملابسه ليسرع في الخروج قبل أن تراه واحدة من زوجاته أو أبنائه، اتجه إلى محل الجزارة القابع أسفل مبنى منزله ليجلس على كرسيه ويداعب شعر ذقنه بأصابعه في غرورٍ، سعيدًا لما فعله بتلك الفتاة...
دمعاتها تواسي محنتها، بسطت ذراعيها على الفراش في استسلامٍ، لم تتحرك كعادتها لإخفاء جسدها، فقد باتت تتقبل فكرة كونها (بضاعة مزجاة) ليقبض أبوها الثمن، ويستبيح زوجها جسدها كأنها فتاة ليلٍ وليست زوجة له، لا تدري الذنب الذي اقترفته لتحظى بأبٍ مثله، لا تعلم إلى أين سيسوقها القدر بين عذاب هذا الرجل السادي وأبيها القاسي! ظلت كما هي لساعاتٍ طويلة، تحاول أن تجد مخرجًا لهذا البئر العميق لكن حوافه لن تحملها للخروج، أصبح أمرًا واقعيًّا، ويجب عليها تقبله، فأصبحت حياتها عبارة عن كابوسٍ مروع، يبدأ

حين يفتح بمفتاحه بباب شقته وينتهي بتسلله على أطراف أصابعه وقت خروجه منه ليمر يوم يليه الآخر حتى عاشت معه عامًا كاملًا لتعلم بعد ذلك خبر حملها الذي لم يمثل له أي شيءٍ بل حينما كانت تشكو إليه ما يفعله بها زوجاته بعدما علموا بأمر حملها، يجيبها بأن تتركهن يحاولن، ربما تُسقط جنينها دون اللجوء إلى طبيبٍ يفضح الأمر، فهذا الحمل يعيق رغباته نحوها، كانت تشمئز لأنه زوجها إلى أن قررت المحاربة لأجل جنينها، فحينما عاد ليتسلل إلى شقتها، أغلقت باب الشقة بالمفتاح ثم تركته في الباب حتى لا يتمكن من الدخول، فحتمًا لن يتمكن رن جرس بابها أو حتى طرقه لأنه جبان يخشى زوجاته، شعرت بالرضا لما فعلته لكنها لم تكن تعلم ما يضمره لها من انتقامٍ مروع سيجعلها تندم على ما فعلته به...

ارتعب القمر من ضوء الشمس الساطع ليترك لها الساحة كي تنير العالم بأشعتها الذهبية، تسللت خيوطها الرفيعة لتداعب عيني (ريانا) فبدأت بفتحهما على مهلٍ ثم جلست محلها على البساط لتكتشف المكان الغريب عن عينيها الذي لم تعتد رؤيته ثم عادت لتتذكر أسوأ ما لمس حياتها الطفولية البريئة، فتساقطت الدموع من عينيها لتهمس باكية:

•يا ترى انتِ فين يا ماما وعملوا معاكي ايه؟!

هاجمتها موجة من السعال وبرد شديد أصاب حلقها وأنفها لنومها على الأرض، حاولت أن تستنشق الهواء في صعوبةٍ، فنهضت عن

الأرض الباردة لتجلس في الخارج على أحد المقاعد المبطنة بقماش القطيفة الفاخر لعل البرودة التي تنخر عظامها الرقيقة تنصهر قليلًا، فركت أصابع يدها لتمنح جسدها ببعض الحرارة، خرجت زوجة أبيها من غرفتها، فوجدتها تجلس في غرفة الضيوف المقابلة للمطبخ، فصرخت في حنقٍ قائلة:

•انتِ ايه اللي مقعدك هنا يا بت؟! أنا مش سايباكي جوا!

فزعت (ريانا) وابتلعت لعابها في صعوبةٍ بالغة، تحاول أن تحرر الكلمات المتوترة عن شفتيها ثم قالت:

•أنا بس كنت بردانة، فقلت أقعد هنا لحد ما حضرتك تصحي.

حركت جسدها الممتلئ في دلالٍ لتجيبها غاضبة:

•حضرتك! لا بقولك ايه يا بت انتِ، شغل السهوكة دا مبيأكلش معايا عيش، أنا زي ما أحطك أرجع ألاقيكي، فاهمة ياختي؟

ارتجفت في خوفٍ، وأجابت في ارتباكٍ لتتجه عائدة إلى المطبخ:

•حاضر.

ولجت باكية لأنها تعلم ألا منقذ لها من زوجات أبيها بعدما سُجنت والدتها، وبدأت حينما أمرتها زوجة والدها بالقيام بعمل المنزل المرهق ثم طلبت منها تحضير الطعام لأبنائها الثلاثة قبل نزولهم متجهين إلى محل (الجزارة) وبالفعل أعدت الطعام لهم، وبعد أن انتهوا منه، حملت الأطباق عائدة بها إلى المطبخ، كادت أن تنظفها، فشعرت بالجوع لتتناول إحدى اللقيمات المتبقية منهم، تناولتها

(ريانا) في نهمٍ، وقد بدأت بطنها تصدر بعض الأصوات الصاخبة جراء تناول ما يسد جوعها، ولجت زوجة أبيها، فرأتها تتناول ما تبقى في الأطباق، ابتسمت شاعرةً بالانتصار، لمعت عيناها في مكرٍ لتنتقم من تلك الفتاة، فرفعت صوتها في غضبٍ حين جذبتها عنوة:

•بتعملي ايه يا بت؟ هو انتِ هتجبيه من برة، مهي أمك قتالة قتلة.. هتطلعي ايه يعني غير حرامية!

ابتلعت ما في جوفها حين كررت كلماتها في صدمةٍ قائلة:

•حرامية!

أكدت حديثها بملامح، حرصت على جعلها صارمة وحادة:

•آه ياختي حرامية، لما تاكلي حاجة من غير ما تستأذني من صاحبة البيت اللي انتِ عايشة فيه تبقي حرامية يا عنيا، ايه أمك معلمتكيش انه عيب؟!

بكت (ريانا) في انكسارٍ، وقالت في قهر:

•أنا آسفة بس كنت جعانة وحضرتك قلتيلي ان الأكل اللي يفيض ارميه.

جذبت خصلات شعرها في غضبٍ لتصرخ قائلة:

•انتِ كمان بتردي عليا؟ طبعًا ما انتِ تربية ناقصة، وأنا اللي هربيكي من أول وجديد.

رفعت حذاءها لتضربها في عنفٍ بالغ كأنها ترى أمامها شبح الماضي بدخول (غصن) المنزل، فإن كانت هي الزوجة الثانية، لا تحبذ أن

يأتي بزوجة ثالثة عليها، فكانت على الدوام تذكر (حمدية) -الزوجة الأولى له - أن زوجها لم يكتفِ بها، لذا تزوج بأخرى، فطالما كانت الشوكة التي كسرت عينيها حتى أتت (غصن) لتحطم تلك الشوكة فيما بينهما، وهي الآن تنتقم من تلك الفتاة الصغيرة لتتركها أرضًا باكية في وجعٍ بعد أن امتلأ جسدها بالكدمات الزرقاء المؤلمة لتردد في همسٍ:

•يا رب.

مناجاة صامتة خرجت من فمها، فهي على ثقةٍ تامة بأن الله (عز وجل) لن يتركها مهما كلف الأمر...

شعرت بآلام قلبها، فعلمت أن طفلتها أصابها السوء، جلست (غصن) على طرف الفراش الصغير لتبكي في ألمٍ على فكرتها السيئة التي تسوقها لابنتها الصغيرة، فهي تعلم جيدًا مع من ستقيم، فقد نالت منهم ما لا يتحمله بشر قط، خصوصًا حينما حاولن أن يفقدوها جنينها..

فُتح باب الغرفة ليطل من خلفه الشرطي، فأشار إليها بيده قائلًا في لهجته الصارمة:

•فزي قومي، وكيل النيابة عايزك.

نهضت في تعبٍ ثم لحقت به ليضع السوار الحديدي حول معصمها ثم جذبها متجهًا إلى مكتب (صهيب).. طرق ثم انتظر إذنه التصريحي بالدخول، فولج ليحل وثاقها، رفعت يدها تفرك معصمها في رفقٍ،

تفحصها بنظراته، فاليوم هو الأخير بالتحقيق معها، ما زال في داخله فضول لسماع باقي قصتها، مزق صفحات الصمت حينما أشار إلى المقعد في هدوءٍ قائلًا:

•اقعدي يا (غصن).

جلست على استحياءٍ ليشير إلى السكرتير قائلًا:

•افتح المحضر.

فتح ملف الأوراق أمامه استعدادًا لاستكمال تدوين تفاصيل الجريمة المتكاملة، وقبل أن يبدأ (صهيب) باستكمال أسئلته، تنحنح في خشونة ليسألها في لهجته الثابتة:

•عاملة ايه النهاردة؟ أحسن؟!

أومأت قائلة:

•الحمد لله يا باشا.

استند بمرفقيه إلى الطاولة بعد أن أبعد فنجان القهوة ليوجه إليها سؤالًا آخر مهتمًّا:

•جاهزة عشان نكمل المحضر؟

تحجرت دمعاتها داخل عينيها لتؤكد في هدوءٍ قائلة:

•جاهزة.

سألها عن آخر نقطة توقفت بها عن البوح عما حدث، فقال:

•طيب وبعد ما قررتي تشتغلي عشان تصرفي على بنتك وتعيشي مسالمة، ايه اللي خلاكي تقتليه بعد السنين دي كلها؟!

أطرقت صامتة لتقطع صمتها اللحظي معترفة في صدق:

•كنت فاكرة إن لما اشتغل وأدفع الإيجار زي ما هو عايز هاكون بتفادى المشاكل معاه، ٨ سنين قضيتهم معاه في ذل، اشتغلت في أي حاجة بالحلال عشان يكون ليا دخل أصرف بيه على بنتي والبيت، بس هو مكنش همه غير إن لازم يكون ليا حاجة من ورث جوزي، ابتدا يزن عليا إني أروح لمرتاته وأبوس إيدهم يدوني حاجة لبنتي اليتيمة، قلت يمكن يكون ضميره صحي وعايزني أأمن مستقبل بنتي.

ثم زفرت الهواء الثقيل لتستطرد في إرهاقٍ قائلة:

•وفعلًا بعد سنتين من رجوعي لبيت أبويا ومحايلة أهل الحتة، ابنه الكبير قبل يديني جزء بسيط من الورث، كنت هاحط المبلغ في أي بنك باسم بنتي، بس أول ما أخدت الفلوس، أخدهم مني بالغصب، مكفهوش كل اللي أخده من ورايا.

علق على ما قالته في لهجةٍ جافة، تخفي في طياتها شيئًا غامضًا:

•عشان كدا قتلتيه؟!

أومأت نافية لتضيف باكية:

•كل دا مكنش سبب، الفلوس مكنتش بالنسبة لي سبب، أنا مهمنيش غير بنتي وبس، هي اللي كنت عايشة أحارب عشانها، علشان أشوف فيها اللي مقدرتش أشوفه في نفسي، بس حتى الأمل دا هو مكنش عايزني أعيشه، كان عايزها تعيش نفس اللي عشته، كان عايز يبيعها هي كمان.

بدا الغضب على ملامحه، كيف لأب أن يكون بمثل تلك الوحشية؟! كيف فعل هذا؟!

أزاحت دموعها لتقص تفاصيل الواقعة، تفاصيل النيران التي أخرجتها من حاجز الصمت لتدافع في قوةٍ عن ابنتها..

*****

عادت من العمل متعبة للغاية، فقد أرهقها العمل بمصنع الملابس الجاهزة أكثر من عملها في المساء، بائعة في أحد محلات بيع فساتين الزفاف، تحاول قدر الإمكان تحصيل مبلغ مناسب لتوفير نفقات ابنتها ومتطلبات المنزل بعد أن ترك أبوها مسؤوليته على عاتقها، نزعت الجلباب الأسود عنها ثم جذبت أكياس الخضروات لتتجه سريعًا إلى المطبخ كي تعد الطعام قبل عودة ابنتها من المدرسة، شرعت في إعداد الطعام وقد تجاهلت تمامًا أباها الجالس على الأريكة المتهالكة في ردهة المنزل، قام من مجلسه ليجذب أحد الأكياس التي وضعته ابنته أرضًا، فجذب إحدى ثمرات التفاح الطازج ليلتهمها في نهمٍ كأنه لم يرَ فاكهة من قبل ثم تحرك تجاه المطبخ الصغير القابع بجوار غرفة نومه، وقف على بابه يرمقها بنظراتٍ متفحصة، كانت تستند إلى رخام المطبخ لتعد الطعام في إنهاكٍ شديد لكنها تخشى عودة ابنتها جائعة، فتصنع ما يسد جوعها، تحدث والطعام في فمه قائلًا:

•مش لو كنتِ سمعتي كلامي ووافقتي تجوزي بنتك للمعلم (بكر الشرنوبي) كان زمان الحال بقى غير.

قطبت (غصن) جبينها، واستدارت لترمقه بنظراتٍ قاتلة:

•انت مش اتكلمت في الموضوع دا ألف مرة وأنا قلت لك مستحيل أجوز بنتي لواحد أد أبوها.

هم بالاقتراب منها ليوضح لها في حنانٍ زائف:

•يا بنتي افهمي، أنا عامل على مصلحتك انتِ وبنتك، الراجل شاريها وهيكتب لها ٢٠٠ ألف مهر.

صرخت وقد نفدت طاقة صبرها المؤقتة:

•ولو هيدفع كنوز الدنيا كلها، بنتي مش للبيع، مستحيل هسمح لك تتاجر فيها زي ما عملت فيا، بنتي هتتعلم أحسن تعليم وهتتجوز اللي هي هتختاره.

ثم أطفأت نار الموقد لتقترب منه مشيرةً إليه في غضبٍ قائلة:

•ولآخر مرة باقولك ابعد عن طريقي أنا وبنتي أحسن لك، أنا مش باقية على حاجة، فلو عايشة ومستحملة اللي بتعمله دا، فعشانها هي.

وتركته لتتجه إلى غرفتها، جلست على المقعد المقابل للمرآة، تتطلع إلى انعكاس صورتها، ما زالت صغيرة وجميلة، سنها لا يتعدى الثلاثين عامًا، ما زالت في مقتبل العمر، ومع ذلك حرمت ذاتها حق الزواج، أرادت أن تعيش لأجل ابنتها، فهي العالم الصغير الذي تعود إليه بعد قضاء يوم شاق، طرقات باب الغرفة جعلتها تزيح دموعها سريعًا لترسم ابتسامةً مثالية لاستقبال صغيرتها، فتحت باب الغرفة

لتجد (ريانا) تتطلع إليها بنظراتٍ مرتبكة، فقالت في قلق:

•ماما.. انتِ بتعيطي؟!

أزاحت دموعها بأطراف أصابعها لتجبر شفتيها على رسم ابتسامة مشرقة قائلة في ود:

•لأ يا روحي، عندي صداع مسقط بعيوني بس.

ثم أبعدتها مبتسمة لتنزع حقيبتها المدرسية مشيرةً بأصابعها إلى منامتها القطنية قائلة:

•يلا غيري هدومك وأنا هاحضر لك الغدا، واسيبهولك بره، تاكلي وتشوفي مذاكرتك.

أوقفتها لتتساءل في حزنٍ قائلة:

•طيب مش هتاكلي معايا؟

أشارت في هدوءٍ حين عقدت غطاء رأسها جيدًا لتخفي خصلات شعرها الحريري قائلة:

•لا يا (رونا).. يدوب ألحق أفتح المحل قبل ما مدام (نجلاء) صاحبة الشغل تنزل.

أومأت، فاتجهت (غصن) للخروج من الغرفة بعد أن أعطت تعليماتها المشددة إليها بضرورة إنهاء واجبها المدرسي، والبقاء في الغرفة لحين عودتها...

*****

في المساء

حاولت (غصن) جاهدة أن تبقى ساعات عملها المسائي حتى لا تفقد راتبها لكن صداع رأسها المشغول بأفكارها المزدحمة، جعل الإرهاق باديًا على وجهها الشاحب لترأف صاحبة المحل بها، وتمنحها إذن الانصراف المبكر، فحملت حقيبتها الصغيرة واتجهت عائدة لمنزلها، فتحت باب الشقة في إرهاقٍ شديد لتتحول نظراتها إلى صدمةٍ كبيرة حينما وجدت الكثير من الأكياس الكبيرة تملأ الردهة، صوت الضحكات الصاخب جعلها تتبع مصدره في تحفز، وصدق حدسها حينما استمعت إلى صوت أبيها، يأتي من غرفة استقبال الضيوف لتجد رجلًا يرتدي جلبابًا أبيض اللون ويجلس مقابله، يتبادلان أطراف الحديث فيما بينهما، فاخترق صوت أبيها أذنيها حين منحه وعدًا بحديثه الصارم قائلًا:

•يا حاج متقلقش، هي تقول زي ما تقول، سيبهالي أنا، البت مش هتبقى غير ليك، انت بس تجهز مهرها، وعلى يوم الجمعة الجاي، نكون مخلصين كل حاجة.

وضع الرجل الكهل يده في يد والدها الممدودة ليبتسم مجيبًا:

•مهرها جاهز وعليه بوسة، نقرأ الفاتحة بقى؟

أجابه مبتهجًا، إنها ضربة حظ تأتيه من خلف ابنته وحفيدته:

•نقرا.. منقراش ليه؟!

جحظت عيناها في صدمةٍ، تحاول استيعاب ما تستمع إليه للتو، عقلها يكاد ينشطر من فرط ذهولها، فاقتحمت الغرفة لتصرخ كالمجنونة:

•انت ايه يا شيخ؟ معندكش دم... مبتحسش، أنا مش لاقيه كلمة توصفك، دا انت حتى مش عاملي اعتبار، بتبيع وتشتري في بنتي وأنا موجودة، فاكرني هسكت لك وأسيبك تتاجر بيها زي ما عملت معايا؟!!

ارتعب الرجل حينما رآها تجذب والدها من تلابيبه، فانصرف على الفور، خرجت (غصن) عن مسارها العقلاني، فباتت كالتي اعتقلت في سجنٍ مؤبد، فكلما حاولت الخروج منه، يبني لها ألف حاجز، خرجت (ريانا) مسرعة من غرفتها إثر صوت صراخ والدتها، فوجدتها تمسك بأبيها ليتحداها بكلماته بعدما دفعها على الطاولة في قوةٍ قائلًا:

•هتتجوزه يا (غصن) ووريني هتعملي ايه؟

تركها ملقاة أرضًا ثم عاقبها في قسوةٍ حتى تذعن لما يريد، صرخت (ريانا) في فزعٍ حين رأت جدها يلجأ إلى عقابه القاسي لوالدتها، فاحتضنتها في خوفٍ، رأته يقترب منها بالسوط ونظراته تعج بالغضب، تذكرت كم كانت تلعنه وتلعن ذاتها، تذكرت الرحلة الشاقة، لا لن تقبل لابنتها عيشة كتلك، لن تستسلم لضعفها، وفي سرعة الرياح، تحركت عيناها صوب طبق الفاكهة الموضوع على الطاولة القصيرة، فالتقطته في شراسةٍ ثم هاجمته ليغزو السكين جسده وتتدفق الدماء

منه دون توقف ناظرًا إليها في دهشة، سقط جسده اللعين، فجذبت السكين لتعود بطعنه من جديد خشية أن يعود لينزع حياة ابنتها ثم تذكرت ما فعله بها، فعادت لتطعنه انتقامًا، تذكرت كل فعلٍ شنيع ارتكبه لتسدد له الطعنة تلو الأخرى، أصبحت الردهة بركة من الدماء لتستيقظ (غصن) من غفوتها الغريبة إثر بكاء ابنتها، تطلعت إلى ما تنظر إليه، ففزعت مما ارتكبته، تركت السكين يسقط من يدها لتحاول السيطرة على جسدها المرتجف، فركت وجهها في جنونٍ، تحاول التفكير فيما فعلته وما ستفعله، جذبت مالها من الداخل ثم جذبت ابنتها وهرولت تاركةً الباب مفتوحًا على مصراعيه ليكتشف أحد الجيران الجريمة، ومن ثم ساقها قدرها إلى هذا المكان المؤلم... بقلبٍ مكسور، وروحٍ محطمة، عادت لواقعها الأليم، فحاولت الثبات لتقول في غير اتزان:

•قتلته ولو عايش هارجع أقتله مرة ومليون، ونفسي أقتل أي أب فاكر إن بنته سلعة هيبيعها عشان يوفر تمن المعيشة، أنا مش ندمانة على اللي عملته، أنا كنت بحمي بنتي من نار كانت هتحرقها زي ما حرقتني، باحميها من عذاب كبير هي مش أده.

ثم أطرقت في حزنٍ لتضيف قائلة:

•أنا فعلًا مكنتش أتخيل إني ممكن في يوم من الأيام أقتل حد، بس لقتني مستعدة أعمل أكتر من كدا عشان بنتي.

ثم قالت في انكسارٍ سكن لهجتها المحطمة:

•أنا لو هيكون جوايا ندم هيكون على إني سبت بنتي لناس أصعب من أبويا بمراحل، وأنا عارفة ومتأكدة إنهم مش هيسيبوها في حالها، يعني حتى وهو ميت لسه بيأذيني.

لمست كلماتها أوتار قلب (صهيب) فشعر بالسخط على تلك المرأة التي تزوج بها يومًا، فإن كانت (غصن) قتلت وحاربت، فلأجل ابنتها، أما زوجته، فقد تخلت عن ابنتها فقط للزواج بآخر، مقارنة غير منصفة، أشار بيده تجاه السكرتير المخصص لتدوين كل ما تتفوه به قائلًا في صوتٍ هادئ:

•سيبنا شوية يا (أحمد).

أشار إليه في وقارٍ ليهم بالخروج قائلًا:

•اللي تؤمر بيه يا باشا.

اتجه إلى الخارج على الفور، ترك (صهيب) مقعده ثم اتجه في خطواتٍ ثابتة بعثت الارتباك في نفسها ثم جذب المقعد المقابل لها ليجلس عليه في تثاقل، تفحص وجهها الباكي ثم تنهد في أسفٍ على ما يحدث في هذا العالم اللعين قائلًا:

•في أشخاص كتير بنقابلهم في حياتنا لأول مرة، بيكون التعامل بينا مقتصر على توقع أو حتى نقاش سريع، بتتنسي ملامحهم مع نهاية اليوم، وفي وشوش لا يمكن تتنسي لأنها بتكون مرتبطة جوانا بذكرى معينة، وانتِ كنتي من الناس دي يا (غصن).. يمكن أنا حاسس بالتعاطف ناحيتك لإنك حاربتي بكل قوتك عشان بنتك في

حين ان في ناس ممكن تبيع عيالها عشان تقدر تكمل الحياة المثالية اللي هي رسماها لنفسها.

والتقط أنفاسه الثقيلة ليبتسم مستطردًا:

•صحيح أنا مقدرش أكون معاكي في قرار قتلك ليه لكن دا ميمنعش إني متعاطف معاكي ومع الحالة اللي اتحطيتي فيها، عشان كدا هحاول أساعدك إننا نثبت إنك قتلتيه بناءً على تدهور حالتك النفسية اللي هو كان السبب فيها، ودي طبعًا الحقيقة، كل اللي والدك عمله فيكِ يا (غصن) ولد جواكِ كره نفسي تجاهه، بدليل إنك محستيش بنفسك وانتي بتقتليه.

صدمها ما قاله، ومع ذلك حافظ على جمود تعابير وجهه، واستطرد قائلًا:

•أنا وكلت لك محامي أعرفه ثقة، هيحاول يثبت إن اللي حصل دا كان بسبب حالتك النفسية، وأهو العقوبة هتكون أخف.

ثم قال في أسف:

•بعد بكره هتتعرضي على دكتور نفسي متخصص، هو دا اللي أقدر أساعدك بيه.

ابتسمت قائلة:

•أنا مش عارفة أشكر حضرتك إزاي.

ثم لعقت شفتيها، وقالت باكية:

•عمر ما حد ساعدني قبل كدا، فيمكن عشان كدا مش قادرة

أستوعب.

فرضت عليه مهامه البقاء بعيدًا، لا يدري هل كان ما يشعر به نحوها شفقة عليها أم أن هناك أمرًا آخر لا يفقهه! نظراته تسبح في عالمٍ من خيال، يكاد يجن كلما يفكر في تعلقه الغريب بمسجونة زارت مكتبة لمرةٍ واحدة، استفاق من شروده الطويل ليضغط على الزر الجانبي لمكتبه ثم يشير إلى الشرطي بمرافقتها إلى الحبس مجددًا، حاول إقناع ذاته بأن الأمر مجرد شفقة تجاهها لكنه بدا أكبر من ذلك، حرر ربطة عنقه محاولًا ضبط انفعالاته، فهناك شيءٌ غامض يهاجمه لكنه انتصر عليه، فجذب معطفه المعلق على المشجب ثم خرج من مكتبه ليهرول إلى سيارته التي قادها في سرعةٍ...

*****

عادت لسجنها المظلم من جديد لكن تلك المرة أوصى (صهيب) الشرطي بالمعاملة الحسنة تجاهها، ألقت نظرة متفحصة على السجينات من حولها ثم اتجهت إلى زاويةٍ بعيدة عن الجميع لتجلس بمفردها كي لا تختلط بإحداهن، نظراتهن المصوبة تجاهها، همساتهن الجانبية الحاملة للشكوك بتوصية وكيل النيابة عليها، جعلت الأبصار تحيط بها، ورغم احتفالاتهن المقززة لاستقبال أي مسجونة جديدة، لم تجرؤ إحداهن على فعل ذلك خشية الشرطي.. جلست (غصن) وحيدة، عقلها مرهق، لم تكن ترغب في قتله، فمازال عقلها حتى تلك اللحظة لا يستوعب ما فعلته، فرغمًا عنها مقتته، وجوده في حياتها

ورحيله، كلاهما قد حطم كيانها، في داخلها شعور بالأسف على قلبه القاسي الذي لم يزره الندم يومًا على ما فعله بها، بل ازداد جحودًا حينما أراد أن يدمر حلمها في ابنتها الصغيرة، حتى بعد موته ما زالت تعاني، لا تمتلك سوى الدعاء بأن ينزل الله الرحمة والسكينة في قلوب زوجات أبيها...

تأوهت في ألم لتضع المكنسة أرضًا في إرهاقٍ جسديٍّ مؤلم، فوقفت تستريح قليلًا وقد ابتل جبينها ببعض قطرات العرق البارد التي تتصبب على وجهها، أزاحتها بأطراف أصابعها المتوترة كي لا تراها زوجة أبيها، فتصرخ أو ربما تبرحها ضربًا مثلما فعلت صباح هذا اليوم، علا رنين جرس الباب ثم طرقات متتالية قوية، جعلت (نعمات) تخرج راكضة تجاه باب شقتها لترى الطارق، عقدت حاجبيها حين رأت أمامها رجلًا غريبًا، حدجها كأنه وجد ضالته حينما رآها، فتساءلت في توجسٍ لهيبته الطاغية، وقد كان افتراضها أنه صاحب منصبٍ وشأن:

• انت مين؟ وعايز ايه؟!

تعمد أن يتجاهل حديثها ثم تساءل في لهجته الصارمة:

• (ريانا) فين؟

شعرت بالدهشة لسؤاله الغريب عن ابنة زوجها، فحتى لم يكلف ذاته عناء إجابة سؤالها الطبيعي، ومع ذلك حاولت الثبات أمامه، فسألته من جديد:

•وانت بتسأل عليها بصفتك ايه بقى؟

نفد صبر (صهيب) فأبعدها عن طريق الباب الذي تسده أمامه ثم ولج باحثًا بعينيه عن تلك الفتاة الحاملة للمواصفات التي أتيحت له معرفتها، أسرعت (نعمات) من خلفه، تحاول منعه من دخول شقتها لتصيح في غضبٍ قائلة:

•انت مين يا عم انت؟ وعايز ايه؟!

تجاهلها (صهيب) كأنها لم تتحدث، وبحث بعينيه ليجد غايته حينما رآها تنظف السجاد أمامه، اقترب منها في حزنٍ ليتأمل وجهها الممتلئ بالكدمات، تعجبت (ريانا) حين رأت هذا الشخص الغريب، يقف أمامها ويتطلع إليها بنظراتٍ متفحصة، ختمها بسؤاله:

•انتِ (ريانا)؟

ازدردت ريقها في توترٍ، ولعقت شفتيها في ارتباكٍ لتجيبه قائلة:

•أيوه أنا، مين حضرتك؟

اقترب منها (صهيب) ليرسم ابتسامة لطيفة على ثغره، فكاد أن يجيبها بكلماتٍ مختارة تبث الأمان في أعماقها لكن سبقته زوجة أبيها حينما رفعت صوتها في اندفاعٍ قائلة:

•انت لسه هتاخد وتدي في الكلام، ما تقول انت مين؟ وعايز ايه؟ بدل ما أصرخ وألم عليك خلق الله.

أبعد نظراته عن وجه (ريانا) الطفولي، فحين رآها تذكر صورة ابنته، استدار ثم أخرج حافظة نقوده ليجذب بطاقة هويته ويقربها

من وجهها ليهدر في شراسةٍ وتحدٍّ قائلًا:

•لمة الناس دي سببها على حاجة تستاهل، لما أحط الكلبشات في ايدك.

ابتلعت ريقها في صعوبةٍ لتحرر لسانها ناطقة:

•وانا عملت ايه بس يا باشا؟

أجاب في لهجته المخيفة:

•اللي عملتيه باين على وش البنت واللي بسببه هخليكي تقضي اللي فاضل من عمرك كله ورا السجن، وابقي وريني بقى هتعرفي تخرجي ازاي؟

تسارعت خفقات قلبها في خوفٍ، فحانت منه نظرة انتشاء لخوفها المتوقع من هيبة حضوره الطاغي، فمنحها نظرة أخيرة محتقنة بشرٍّ يضمره لها إن نطقت بحرفٍ آخر ثم وقف قبالة (ريانا) ليبدأ حديثه بلهجته الهادئة المعاكسة للحالة التي تتعايش بتفاصيلها مع زوجة أبيها:

•بصي يا حبيبتي، أنا أنكل (صهيب) وجيت أخدك عشان تشوفي ماما، مش انتِ عايزة تروحي ليها؟

شعرت أن السماء قد أسقطته إليها نجدة مما تلقاه من عذابٍ مهين، والأجمل من ذلك أنها سترى والدتها، فلم تتردد في إجابته:

•بجد هتاخدني عندها؟

أومأ مبتسمًا، فأمسكت برسغه في إحكامٍ، وقد لمعت عيناها بالدموع

كأنها تستنجد به، ربت في حنانٍ على أصابعها ليتجه بها إلى الباب، رغبت (نعمات) في إيقافه بوابل كلماتها المتلاحقة لكنها لم تستطع، لذا أذعنت إليه وتقبلت رحيلها في هدوءٍ يمزق أحشاءها لعجزها حتى عن التطلع إلى هذا الغريب الغامض الذي حطم غرورها وانتصر على حقدها...

تحرك (صهيب) بسيارته فور صعودها، فحانت منه التفاتة صغيرة تجاه تلك الفتاة التي تمتلئ عيناها بمشاعر الاشتياق إلى رؤية والدتها، قطب جبينه حينما سلط نظراته على آثار الضرب الظاهر على وجهها، لوهلةٍ بدا مترددًا في الحديث عما فعلته زوجة أبيها، ففضل تجاهل هذا الجزء المؤلم، وحين وصل إلى البناء الذي يقطن فيه، صف سيارته ليشير إليها في ابتسامةٍ صغيرة قائلًا:

•وصلنا.

خرجت من السيارة مشتتة الذهن لتتفحص المكان من حولها في خوفٍ استحوذ على قسمات وجهها، فتساءلت في دهشةٍ حين تفحصت البناء أمامها:

•فين القسم؟ انت واخدني فين؟!

شعر بخوفها وعدم ثقتها بشخصٍ غريب، تأكد من انغلاق باب سيارته ثم وقف ليجيبها قائلًا:

•على بيتي يا (ريانا).

تطلعت بنظراتٍ مرتبكة إلى البناية ذات الارتفاع الشاهق، فابتعدت

خطوتين للخلف لتقول في نبرةٍ مهزوزة:

•بس ماما محبوسة، جايبني هنا ليه؟!

استند بقدمه إلى جسد السيارة الخارجي واضعًا يديه في جيبي سترته السوداء ثم قال في اهتمام:

•ماما فعلًا موجودة بالحبس، وأنا عند وعدي إني هوديكي ليها بس لما الجروح اللي في وشك تخف شوية.

ثم علل (صهيب) بقاءها في منزله قائلًا:

•يعني كفاية اللي هي فيه، مش حمل هموم تانية، وطبيعي لما تشوف جروح وشك، هتعرف اللي حصلك ولا ايه؟

منحته نظرة حائرة، فالوثوق به أمر لم تعتده من قبل، يكفيها ما فعله جدها وزوجات أبيها ليجعلها تكره ميثاق الثقة الكاذب، منحها (صهيب) عذرًا قويًّا لترددها، فقال في لهجةٍ تتسم بالرقة:

•أنا عندي بنت تقريبًا في سنك، ويمكن دا السبب اللي خلاني أقدم لك المساعدة وأنقذك من ايد مرات أبوكي.

ثم لمس وجهها ليضيف مبتسمًا:

•يعني تقدري من اللحظة دي تعتبريني زي باباكي بالظبط.

تعمقت نظراتها تجاهه، فالتمست الصدق في عينيه، واكتفت بهز رأسها في بطءٍ كأنها أمام أمرٍ واقع لا مفر منه غير المواجهة، لا تعلم ما يضمره لها لكن في داخلها رغبة في تصديق أي شخص، فالتجربة التي قضتها كانت قاسية للغاية، رأف (صهيب) بها، فأخرج هاتفه ثم

بعث برسالةٍ إلى ابنته، يطلب منها الخروج إلى الشرفة حتى تلوح له كالمعتاد، وبالفعل هرولت تلك الصغيرة إلى شرفة الشقة التي تقبع في الطابق الثالث لتلوح له من الأعلى، ابتسم (صهيب) ليشير بيده إلى (ريانا) قائلًا:

•أهي يا ستي، طلعت على السيرة.

رفعت رأسها تجاه ما يشير إليه لتجد فتاة صغيرة، يبدو أنها في الثانية عشرة من عمرها، تلوح لهما في سعادة، ارتاح قلبها لما رأته، فرسمت على وجهها ابتسامة بريئة لتلك الفتاة التي تراها أول مرة، انتبهت إلى صوته حين أشار في هدوءٍ:

•ها هتطلعي معايا ولا لسه قلقانة؟

أومأت موافقة، فصعدت خلفه إلى الأعلى، فتح باب شقته ليستمع إلى صوتٍ مألوف، يأتي من خلفه قائلًا:

•الباشا اللي مختفي عننا.

استدار (صهيب) تجاه صوت ابن أخيه مبتسمًا ليجيب قائلًا:

•أنا برضو اللي مختفي، ولا انت اللي أبوك حابسك فوق في الشقة؟!

وقف أمامه ليجيب قائلًا:

•طيب يا عم هو عامل حظر تجوال عشان أنا ثانوية عامة، متفكش انت الحصار وتطلع تطل على (قاسم) ابن أخوك الحيلة ولا الصداقة اللي بينا هانت عليك مع أول حظر؟!

تعالت ضحكاته، فأشار إليه بيده ليقترب قائلًا:

•طب تعالى نكمل كلامنا جوا.
انصاع إليه، فخرج من المصعد بعدما ترك بابه مفتوحًا للحديث معه، ضيق (قاسم) عينيه في ذهولٍ ليتأمل تلك الفتاة الغريبة التي تقف خلف عمه، فتساءل في دهشةٍ قائلًا:
•مين دي يا عمي؟!!
أجاب موضحًا:
•دي (ريانا).. اعتبرها بمقام بنت عمك.
عقد حاجبيه في دهشةٍ مما يستمع إليه لكنه تمكن من ضبط انفعالاته، فمال عليه ليسأله هامسًا:
•هو انت اتجوزت من ورانا ولا ايه؟!
أجابه بملامح واجمة مشيرًا إليه بالصمت:
•هنتكلم بعدين.
اكتفى بإيماءة ثم لحق به، فربما إن علم هذا الفتى أنها مصيره المجهول لرحب بها بصدرٍ رحب..
ولجت في خطواتٍ مرتبكة، حاولت رؤية الفتاة الصغيرة لتخرج من غرفتها الجانبية في نهاية الردهة الطويلة، وتقترب منهم قائلة في فضولٍ:
•مين دي يا بابا؟
انحنى (صهيب) ليكون مقابلًا لها، فأمسك ذقنها ليجيب مبتسمًا:
•دي هتبقى أختك وصاحبتك يا روحي، مش كنتي زعلانة إن

مالكيش أخت ولا حد تلعبي معاه، أهو خلاص بقى عندك.

تعالت صيحات الصغيرة في حماسة، فتسلل إلى مسمعه صوت مصعوق، قطع الابتسامة المرسومة على وجهه، فرفع رأسه تجاه مصدره ليجدها تقف بجوار والدته، تتساءل في غضب:

•مين دي؟! وبأي حق تطلب من بنتي تعاملها كأخت ليها؟!

سيطر على غضبه الثائر، فانتصب واقفًا ليشير إلى (قاسم) بيده قائلًا:

•خدهم وادخل جوا يا (قاسم).

أومأ ليتحرك مع الفتاتين إلى الداخل، وقف (صهيب) مقابلها ليحدجها بنظرةٍ قاتلة، ويهتف في حنق:

•انتِ ليكِ عين تيجي لحد هنا بعد اللي عملتيه؟!

قالت والدته سريعًا، تحاول احتواء الموقف قبل أن يشتد:

•اهدا بس يا حبيبي، وخلينا نتكلم بهدوء.

تعلقت نظراته بوالدته ثم عاتبها قائلًا:

•أنا مش قايلك يا ماما إني مش عايز اشوف وشها هنا؟!

منحته تفسيرًا لحديثه قائلة:

•جيت عشان أشوف بنتي.

ردد في سخطٍ مبتسمًا في سخرية:

•بنتك!

ثم قال ممتعضًا:

•وايه اللي فكرك بيها دلوقتي؟! مش خلاص رمتيها واتجوزتي وعشتي حياتك؟!

استاءت (أميرة) لسماع هذا الجزء المتكرر من الجميع، فقالت في حزنٍ مصطنع لتثير شفقته تجاه هذا الاستعراض التمثيلي:

•اتطلقت خلاص يا (صهيب).. مقدرتش أعيش معاه لإني لسه بحبك.

ارتفع صوت ضحكاته المستهزئة ليقرص مقدمة أنفه قائلًا في دهشة:

•لو فاكرة إن حوار بحبك ومقدرتش والكلمتين الهبل دول هيأثروا فيا تبقي غلطانة.

قالت في تهكمٍ:

•دي الحقيقة، أنا لسه بحبك، ومهما عملت هفضل أم بنتك اللي مش هتخلى عنها بسهولة.

وضع يديه في جيبي بنطاله، وقد اهتز جسده في حنقٍ قائلًا:

•وكان فين إحساس الأمومة دا طول الشهور اللي فاتت؟!

كادت أن تجيبه، فقاطعها في سخطٍ حينما دنا ليصبح قريبًا منها، وأشار بإصبعه محذرًا:

•متحاوليش تكدبي وتلفي أي حوار والسلام، كون إنك أم مش مسؤولة ميدكيش الحق إنك تطالبي ببنتك.

وأضاف في احتقارٍ قائلًا:

•أنا النهاردة بس حذفت لك كل حجة ممكن تستخدميها، النهارده

بس عرفت يعني ايه أم، الأم هي اللي بتضحي عشان أولادها مش بتضحي بيهم.

وبتر حديثه الذي أغلق الأبواب المعلقة بالآمال الزائفة أمامها ثم فتح باب منزله على مصراعيه ليخبرها في حدةٍ قائلًا:

•اخرجي من هنا ومتفكريش ترجعي تاني.

تطلعت إليه غاضبة، فجذبت حقيبة يدها الموضوعة على المقعد المجاور للشرفة ثم اتجهت للخروج، أغلق الباب في قوةٍ عمدًا ليتجه إلى والدته التي كانت تراقب ما يحدث في صمتٍ، وقال في لهجةٍ معاتبة:

•يا ماما، أنا مش عايز البنت تعيش في الصراعات اللي بينا دي، أنا عارف إنها مش بتيجي عشان بنتها والكلام دا، هي لسه فاكرة إنها ممكن تخدعني بكلامها عشان أقع في شباكها!

أجابت كي تمتص غضبه:

•أنا مجاليش عين أطردها يا ابني.

زفر غاضبًا ثم قال في اتزانٍ:

•أنا آسف يا أمي، اتنرفزت عليكي وانتي مالكيش أي ذنب.

ابتسمت قائلة:

•معلش يا حبيبي، كله يهون عشان (مرين).

أجابها في حزنٍ قائلًا:

•وانا كل اللي بعمله عشانها.

جلست على الأريكة ثم تساءلت وقد سكن وجهها الدهشة:

•هي مين البنت اللي دخلت معاك دي؟!!

انتقلت عيناها في فضولٍ إلى أركان الغرفة التي يغلب عليها اللون الوردي المزخرف برسوماتٍ ملفتة من أشكال السندريلا وغيرها من الألعاب التي تملأ الفراش، تعلقت عيناها بسلة الألعاب الضخمة الموضوعة جانبًا، فقالت في حماسة حين أشارت إليها:

•كل دي ألعابك؟!

أجابتها (مرين) في ابتسامةٍ رقيقة لتقدم لها إحدى عرائسها الصغيرة قائلة:

•وهيكونوا بتوعك من النهاردة.

ثم سألتها في فضولٍ قائلة:

•هو انتِ اسمك ايه؟

أجابت حين التقطت اللعبة منها لتتأملها في بهجة:

•اسمي (ريانا).

جلس (قاسم) على الفراش، يراقب حديثهما، فقال في إعجابٍ واضح:

•اسمك جميل وغريب.

ابتسمت وقد أمسكت بالعروس التي أمامها، فجذبت الصغيرة يدها قائلة في سعادة:

•وأنا اسمي (مرين) ودا (قاسم) ابن عمي، عنده أخت اسمها (تاج) معايا في المدرسة.

ثم سألتها في اهتمامٍ:

•هو انتِ هتفضلي معايا على طول زي ما بابا قال، ولا هترجعي لبيتك وعيلتك؟

تلاشت ابتسامتها ليعتريها الخوف من زوجة أبيها، فسقطت اللعبة من يدها رغمًا عنها لتردد في توترٍ:

•لأ، مش عايزة أرجع لهم تاني، مرات أبويا هترجع تضربني وتشتمني.

وانفجرت في نوبة بكاء، فنهض (قاسم) ليشير إليها في حزنٍ قائلًا:

•طيب متعيطيش مش هترجعي ليهم.

جلست على المقعد الصغير من خلفها لتزيل دموعها، شعر (قاسم) بالدهشة، وطلب من ابنة عمه أن تأتي بزجاجة مياه، أزاحت (ريانا) دمعاتها ثم سألها في دهشةٍ قائلًا:

•طيب ومامتك فين؟!

نظرت إليه في ألمٍ، واختنق صوتها لتجيب قائلة:

•في السجن.

وكأنها أزاحت الستار عما تخفيه، فانهمرت دموعها دون توقف، صُعق (قاسم) لسماعه هذا الجزء المتعلق بوالدتها، فاستغل دخول (مرين) بالمياه ثم قال ليهم بمغادرة الغرفة:

•اشربي المية ومتعيطيش.

خرج باحثًا عن عمه، عله يفهم ما يحدث، فوجده يجلس في الشرفة بجوار جدته، ويبدو أنه يتحدث فيما يخص تلك الفتاة الغريبة، نبت في

داخله فضول غريب لسماع قصتها، ورغم أنه ليس من النوع الفضولي إلا أنه تقدم لسماع قصتها...

بدا الحديث عن قصة حياة تلك الفتاة مؤلمًا للغاية حتى وإن كان مختصرًا بعض الشيء، تعجب (قاسم) من الجريمة البشعة المرتكبة في حق أب، فسماع قصة تلك المرأة، لم يجعله يشعر بالشفقة نحوها، بل كان محوره الأساسي تلك الفتاة ذات الوجه الملائكي، تلك الفتاة التي أحب اسمها وأحب سماع ما يخصها، تعاطفه الأكبر كان يثقل ميزانها، فقلبه سيرشده إلى من ستمتلك هذا القلب بعقدٍ موثق، أما السيدة (نسرين) فتمزق قلبها الرقيق، تعاطفها الكامل شمل الأم والابنة، فأي شفقةٍ ستسوقها تجاه أبٍ باع ابنته واستنزفها حتى الرمق الأخير؟! خرجت عن صمتها المتأثر بما قاله (صهيب) قائلة:

•لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، طيب هي بس ذنبها ايه يا ابني في الجوازة دي؟! يا حبة عين أمها لسه صغيرة!

أجابها (صهيب) ليراقب رد فعلها على ما سرده بما يتعلق بجزء معاملة زوجة أبيها لها:

•مفرقش معاها صغيرة ولا كبيرة، دي حتى قعدتها من المدرسة.

ثم تنهد في غموضٍ، استحوذ عليه منذ سماعه لقصة (غصن).. المرأة التي جعلته يشعر بالارتباك، ما بين الشفقة والقسوة لما فعلته من جريمةٍ بشعة، فربما تخيله لحدوث أمرٍ مماثل لابنته، هو ما دفعه للتعاطف معاها، فاستطرد قائلًا:

•مقدرتش أرجع البيت وأحط راسي على مخدتي، وأنا عارف إن في طفلة بريئة ملهاش ذنب هتعيش عمرها كله في سجن مراتات أبوها، وأول ما شفتها وشفت الجروح اللي في وشها، ارتحت لقراري دا.

عكست تعبيراتها وجومًا مغلفًا بالألم لتخيل الاعتداء الوحشي على تلك الفتاة الصغيرة، فأزاحت الدمع العالق بأهدابها لتؤكد القرار الصائب لابنها قائلة:

•خير ما عملت يا حبيبي، وإن كان عليا، فهحطها في عينيا وهحبها زي (مرين) وأكتر.

شعر بالرضا، فطبع قبلة عميقة على يدها ليتمتم قائلًا:

•دا العشم برضو يا ست الكل.

قطع (قاسم) الحديث المتبادل بينهما، وقال في انزعاج:

•هي (ريانا) فعلًا ملهاش ذنب، واللي عمي عمله دا شيء جميل، بس اللي والدتها عملته شيء ميتغفرش، كون إنها تقتل أبوها لأي سبب من الأسباب، جريمة من أبشع ما يكون.

أيدت الجدة حديث حفيدها لتوضح نظريتها البسيطة قائلةً:

•أنا مش متعاطفة معاها لإنها قتلته، أنا متعاطفة مع اللي شافته منه يا ابني، الواحدة مننا ممكن تتحول لحنش عشان عيالها، ودي بنتها الوحيدة.

عاد ليطرح سؤالًا آخر:

•ومكنش قدامها أي حلول غير القتل؟!
أجابت جدته مبتسمة:
•في الساعة دي العقل مبيكونش مستوعب اللي بيحصل، ما انت سامع عمك وهو بيقول إنها مريضة نفسيًّا، وهي استحملت فوق طاقة البشر لما الأذى كان بيطولها هي، بس لما وصل لبنتها لجأت للتصرف دا.
ملامح وجه (قاسم) الواجمة، لم تمنحه السبيل للتعاطف مع ما ارتكبته (غصن) على عكس جدته التي شعرت بالشفقة على الأم والبنت، أفصح (صهيب) عما يشعر به تجاه موضوعها الشائك قائلًا:
•في البداية مكنتش عارف أتعاطف معاها ولا لأ، بس لما سمعت اللي قالته عن سبب قتلها ليه حسيت أد ايه بتحب بنتها، ودا اللي دفعها إنها تقتله، شفت قدامي مقارنة صغيرة بينها وبين الست اللي كانت في يوم زوجة ليا، مقدرش أتغاضى عن رميها لبنتها عشان تتجوز وتكمل حياتها بحجة إنها لسه صغيرة والحياة قدامها مقابل (غصن) اللي ضحت بشبابها وبكل حاجة حلوة عشان تحمي بنتها من كل الصراعات اللي عاشت فيها، ورغم كدا مترددتش إنها توفر لها حياة آمنة من وجهة نظرها.
ثم ختم كلماته الصادقة قائلًا:
•هي هتدفع التمن من عمرها بالمصحة، وكان ممكن كل اللي ضحت بيه عشانها يضيع بس أنا مقبلتش بدا، أنا هتكفل بـ (ريانا)

وهتكون ملزومة مني، زيها زي بنتي بالظبط، هحاول أحقق حلم (غصن) البسيط إنها تكمل تعليمها وتختار الشاب المناسب ليها.
ربتت الأم على كتف ابنها في اقتناعٍ بما فعله تجاه تلك الفتاة البائسة، أما (قاسم) فتذكر كيف كانت تبكي حين أخبرته بسجن والدتها منذ قليل، فرغمًا عنه تألم قلبه النابض الذي يخفق بمصيرٍ مجهول...
أحلامها الليلية المزعجة، لم تكن في لائحة الاختيار بل كانت مفروضة عليها، عادت ذكرياتها التعيسة مع زوجها الراحل للتشكل أمامها من جديد، فدفعتها لاستكمال باقي تفاصيل هذا اليوم المعهود، فكانت تتحلى ولأول مرة بقوةٍ غريبة المصدر، دامت لأول يومٍ حينما أغلقت باب المنزل من الداخل لتمنعه من دخول منزلها الذي يتخذه مكانًا لمتعته، جعلته يعود بخذلانٍ مثلما اعتاد أن يخذلها، فظنت أنها حققت أول انتصارٍ لها لكنها كانت البداية فحسب لهلاكٍ سيهز كيانها كأنثى ليؤكد لها أن القوة ليست مرتبطة بها، فقد أعد لها خطة محكمة للانتقام مما فعلته، حينما أخبر زوجاته بالاستعداد للخروج معه للتنزه وشراء ما يلزم الأطفال من ملابس وألعاب، زف لقلوبهن السرور ليظهرن في أبهى الثياب كأنها منافسة صارخة، وبالفعل ذهب معهن حيث المكان المختار، فاستغل انشغالهن واختفى سريعًا أمام أعينهن ليستقل سيارة أجرة عائدًا للمنزل، بعد أن شدد تعليماته الكاذبة تجاه سائقه ليخبرهن أن أحد أصدقائه قد هاتفه ليضطر مجبرًا للرحيل...

في شقة (غصن)

جلست على الأريكة أمام التلفاز في إرهاقٍ لمرحلة القيء المتزايدة عليها لشهرها الثالث من الحمل، فحاولت قدر الإمكان إغلاق عينيها في استسلامٍ ليخف الدوار حينما تغلق عينيها، انتفضت في فزعٍ حينما اخترق أذنيها صوت اصطدامٍ قويٍ يأتي من خلف باب شقتها، سُلطت نظراتها المرتعبة على الباب الذي عاد ليصدر الصوت نفسه مجددًا، فبدا لها كأن أحدهما يحاول كسر باب شقتها، فتسللت على أطراف أصابعها ثم أرهفت السمع لما يحدث في الخارج بعدما تزاحمت الأصوات، فزعت (غصن) حينما استمعت إلى صوت زوجها الواضح حين أمر صبيان (الجزارة) في حدةٍ قائلًا:

•ما تكسر ياض منك له الباب، انتوا مبتاكلوش في بيوتكم ولا ايه؟!

أجابه أحدهم ليستدير بجسده المرهق تجاهه قائلًا:

•يا معلم، الباب شديد ومش هيفتح بسهولة، ما نجيب نجار أسهل من كل دا.

أجابه في غلظةٍ، وكأن وظيفته تحتم عليه تنفيذ كل أوامره:

•المفروض إن عندي رجالة تاكل الزلط، بس باين إنهم عيال خرعة مش قادرين يكسروا حتة باب.

ثم غمغم بحجته الزائفة كي لا يثير الشكوك داخلهم:

•ياكش بس المفتاح اتكسر من المدام في الكالون، ومش عارفة تخرج من الشقة، مكنش كل دا حصل.

ثم أشار إليهم لاستكمال مهامهم الشاقة، فعادت محاولتهم بكسره أكثر من مرةٍ حتى نجحوا، فركضت (غصن) تجاه غرفة نومها لتغلق بابها في خوفٍ، جعل جسدها يرتجف، فولج ثم أغلق الباب خلفه حين رفع يديه بتحية مؤقتة لهم قائلًا:

•متشكرين يا رجالة.

وأغلقه قبل أن يتجه مسرعًا إلى الداخل باحثًا عنها بعينين تشعان شرًّا ووعيدًا أتى لتحقيقه، نظر إلى الردهة الواسعة، فجذب انتباهه باب غرفة النوم المغلق، وقف أمامه هامسًا:

•هتفتحي الباب دا وتخرجي بهدوء ولا أخلي الرجالة تدخل تكسره وزي ما تيجي تيجي بقى؟ وأهو تبقى فضيحتك بجلاجل لما أزعق بعلو صوتي وأقول معاها راجل وفي سريري.

جحظت عيناها في صدمةٍ، تحاول استيعاب ما استمعت إليه، استنكار ممزوج بالنفور قد علا ملامحها، ففتحت الباب لتحدق إليه ثم هتفت في دهشةٍ لازمها الازدراء قائلة:

•انت بتقول ايه؟!

ابتسم في مكرٍ وقد تحقق مراده بخروجها، فجذب خصلات شعرها في قوةٍ ليصفعها قائلًا في صوتٍ يشبه فحيح الأفعى القاتلة:

•بقى أنا يا بت يتعمل فيا كدا؟! ليه فاكرة نفسك مين بروح أمك؟!

ثم قال في غضبٍ متعمدًا إلحاق الضرر بوجهها فقط حتى لا يصيب الجنين، فيفضح أمره حينما تزداد الأمور سوءًا بفقدان وعيها:

•من يوم يومك وانتِ عارفة إنك هنا عشان مزاجي، وأبوكي بيقفش مني فلوس لحد دلوقتي بكيفي رغم إنه أخد المؤخر ومالوش حاجة عندي.

جلدتها كلماته المهينة أكثر من ضرباته المؤلمة لتنهار باكية ثم قالت في صوتٍ الشاحب:

•أنا قرفت منك ومن أبويا، قرفت من تعاملك القذر دا وكأنك جايب بت من الشارع عشان غرضك مش زوجة ليك، أنا بكرهك وبكره أبويا اللي جبرني أعيش مع واحد ××× زيك.

ليتها لم تنطق تلك الكلمات التي تقف في حلقها كالطعام الغير مهضوم، ليتها صمتت وتقبلت الإهانة بصدرٍ رحب، فازداد عقابها سوءًا حين جذبها لتلك الغرفة اللعينة التي تمقتها وتمقت النوم فيها، فتفضل الاستلقاء على الأريكة ليلًا في ضباب البرد القارص على أن تغفو دقيقة على الفراش الذي يعذب فوقه روحها المنهكة ويذبح جسدها في انتشاءٍ، يظنه رجولة، يأسرها بالأغلال لتتبعه في صمتٍ، فإن تحررت العقدة التي تربط لسانها عن البوح بما يكنه قلبها تجاهه، يعنفها بما لا تحبذه، تبًّا لأبيها الذي جعلها أسيرة هذا الرجل الذي تمقته وتلعنه كل ثانية في حياتها البائسة معه، قتل روحها بهذا الاعتداء الجسدي الوحشي، تلقت عقابها المناسب من وجهة نظره، فقد استباح ألمها بما يكفي لقتلها، قتل بداخلها رداء الطفولة الزائف، جلد هذا الجسد الذي بات يستقبل العذاب كأنه اعتاده، إلى أن ينتهي منها فيتركها

على الفراش ملقاة كأنها قطعة قماشٍ بالية، فخرج مبتسمًا شاعرًا بالانتصار، أما هي فأحاطت جسدها بذراعيها باكية، شعر قلبها المسكين بالحيرة، يمزق نياطه قسوة أبٍ لا يدرك سوى المال حتى وإن كانت هي سبيله، ولعنة زوجٍ يستبيح جسدها لإشباع رغباته المريضة، مسدت بطنها في بطءٍ هامسة:

•ما تتخلاش عني انت كمان، أنا ماليش غيرك.

واستها دمعاتها الرفيقة، رغم جفاء الفراش الذي احتوى جسدها ليلة كاملة لعدم مقدرتها على التحرك، فظلت تصارع الألم النفسي حتى الصباح، تصارع حتى تمكنت من التحرك وترك هذا اللعنة التي تبددها...

انتهت ذكرى هذا اليوم البائس بالدموع الحارقة، فما زالت تجلس هنا، تضم جسدها إلى صدرها في خوف، ما زالت هنا تعاني في سجنها، غمر جسدها ألم شديد، ودت لو بسطت قدميها قليلًا لكن المساحة الصغيرة لا تكفيها، نظرت تجاه السجينات اللاتي تركن لها مساحة صغيرة للغاية، استندت برأسها إلى الحائط من خلفها، ونظرت رغمًا عنها إلى الحائط المقابل لها، فرأت كلمات خادشة للحياء تُكتب في كل مكان، أغمضت عينيها، لا تستطيع البقاء لفترةٍ طويلة في هذا المكان الحقير...

أشرقت الشمس، فتسللت خيوطها المثيرة لتخترق نافذة الغرفة، ومنها تسللت (مرين) على أطراف أصابعها، لتتجه إلى الفراش الصغير

المجاور لها، فبدأت بهز جسد (ريانا) التي فتحت عينيها مبتسمة بعدما حظت بنومة هنيئة، وجلست على الفراش لتتأمل ابتسامة (مرين) التي تقابلها حينما قالت:

•صباح الخير.

فركت عينيها لتجيبها في هدوءٍ قائلة:

•صباح النور يا (مرين).

طبعت الفتاة الصغيرة التي تبلغ اثني عشر عامًا قبلة شكر على وجنة (ريانا) قائلة:

•شكرًا إنك مش سبتيني ومشيتي زي ما ماما سابتني لوحدي ومشت.

تألم قلب (ريانا) حين استمعت إليها، وأجابتها في حزنٍ قائلة:

•لا مش هاسيبك، ما تخافيش، أنا ماليش مكان أروحه.

كادت الصغيرة أن تجيبها، فاخترق باب غرفتها الوردي طرقات تعلم مصدرها جيدًا، وقفت على الفراش لتهز جسدها الصغير في بهجة لأنها تذكرت يومها المفضل الذي تقضيه برفقة والدها وأبناء عمها خارج المنزل، فهو يوم الإجازة الوحيد في الأسبوع، لذا تحب يوم الجمعة وتترقبه، فحين تحرر مقبض الباب، هتفت في حماسةٍ قائلة:

•صباح الخير يا بابي.

طل (صهيب) من خلف الباب ثم ولج مبتسمًا ليتفحص فراشهما، وجد ابنته واقفة، فانحنى بجسده تجاهها ليقبل رأسها قائلًا:

•صباح الورد يا روح بابي.

ابتسمت متسائلة:

•أخلي تيتا تلبسني الفستان عشان نخرج؟

أجاب في مكرٍ قائلًا:

•لأ، لما نفطر الأول تبقي تلبسي.

هبطت أرضًا لتهرول نحو الخارج قائلة:

•هاقول لتيتا تجهز الفطار عشان نمشي بدري.

وجه نظراته إلى (ريانا) التي تراقب حوارهما في اهتمامٍ ليرفع يده في حنوٍّ ويمسد خصلات شعرها القصير قائلًا في لهجةٍ لطيفة:

•يلا يا حبيبتي، قومي اغسلي وشك كدا عشان هننزل نجيب لك لبس وكتب وكل اللي نفسك فيه.

منحته نظرة حائرة، فقالت في ارتباك:

•لبس ليا؟!

أومأ مؤكدًا، فتساءلت في قلق:

•طيب فين ماما؟ مش هتخرج؟ حضرتك قلتلي هتاخدني ليها.

أجابها (صهيب) حين اعتدل في جلسته ليتحدث معها في ثباتٍ، فربما كانت إجابته مختصرة لاستئصال أسئلتها التي تجول في خاطرها:

•بصي يا (ريانا).. انتِ مش صغيرة، لا انتِ بنت عاقلة وهتقدري تفهميني، ماما ارتكبت جريمة والقانون بيعاقب عليها، يعني هتقعد شوية في السجن وهتطلع ليكي، أنا وكلت لها محامي وبنحاول قدر

الإمكان اننا نثبت إنها تعبانة شوية، يمكن ينقلوها لمستشفى تقضي بيها مدة العقوبة، ودي نقطة كويسة لإنها رحمة عن السجن.

ثم قال ممسكًا يدها، ويده الأخرى تجفف دموعها التي انسابت في ألم:

•وانا عند وعدي، النهاردة أجازة، النيابة مش بتفتح، بكره الصبح إن شاء الله هاخدك ليها تشوفيها وتتكلمي معاها، وبعد كدا هسألك شوية أسئلة زي ما رئيس المباحث سألك من أول ما تم القبض عليكم، وهتحكيلي اللي حصل في اليوم دا وكل حاجة تعرفيها عن جدك.

أومأت باكية ثم قالت في صوتٍ مرتعش، يحارب للخروج:

•طيب وبعد كدا هترجعني لمرتات أبويا؟

أجابها مسرعًا دون تردد:

•لا طبعًا، انتِ هترجعي بيتك.

أعادت الكلمة في دهشة:

•بيتي!

أكد حديثه بابتسامته التي لا تفارقه قائلًا:

•أيوا طبعًا دا بيتك، و(مرين) أختك الصغيرة، وأنا هكون في مقام والدك، إحنا مش اتكلمنا في النقط دي ولا ايه؟!

أومأت لتؤكد سماعها تلك الكلمات أمس، فصفق بيديه ليأمرها ممازحًا:

•طيب يلا بقى بلاش كسل، البسي بسرعة عشان هننزل نجيب

اللبس ونجهز شنطة المدرسة.

رفعت جسدها على ركبتيها لتسأله في سعادة:

●مدرسة!

أومأ قائلًا:

●آه طبعًا المدرسة، أمال انتِ فاكرة إنك هتتدلعي وهتسيبي دراستك! الأسبوع الجاي هنقلك في المدرسة اللي جنبنا.

لمعت عيناها بدموع الفرح، فطبعت قبلة صغيرة على وجنته ثم ركضت سريعًا خلف (مرين) لتغتسل أولًا، راقبها (صهيب) حين ركضت في نشاط، وكأنها عادت للحياة ليتطلع إلى الفراغ ويقسم أنها ستكون جزءًا من عائلته الصغيرة، بعد تناول طعام الإفطار، بدلت الجدة ثياب الفتاتين، فارتدت كلٌّ منهما فستانًا مبهجًا، التفت (ريانا) بفستانها الذي قدمته لها (مرين) في سعادة ناظرة إلى صورتها في المرآة، خرجت معهم فأمسك (صهيب) بيدها، ويده الأخرى تمسك يد ابنته، وجهت إليه (ريانا) نظرة عميقة غامضة، لقد قدم لها هذا الرجل الغريب ما لم يقدمه أبوها الفعلي، فلقد منحها الله (عز وجل) عوضًا، لا يقدر بمال العالم، توقف المصعد فهبطوا جميعًا، فتح (صهيب) باب السيارة الخلفي، فصعدت الفتاتان ثم رفع عينيه للأعلى حين قرب الهاتف من أذنه، طل (قاسم) من شرفة شقته ليجيبه قائلًا:

●نازلين حالًا.

أشار (صهيب) بيده حين ردد قائلًا عبر الهاتف:

•انجز.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى هبط (قاسم) إلى الأسفل بصحبة شقيقته الصغيرة، ففتح (صهيب) الباب الخلفي لتجلس بجوار الفتاتين بينما صعد إلى جواره في الأمام، فاستدار برأسه للخلف كي يتأملها بنظراتٍ صادمة بعدما ارتدت فستانًا جعلها كفراشة الخريف، فقال مبتسمًا، يحاول إخفاء مشاعره:

•إزيك يا (ريانا).

أجابته مبتسمة:

•الحمد لله.

قال حين سلط نظراته على الفستان في إعجاب:

•فستان جميل.

اكتفت بمنحه ابتسامة، فاعتدل في مقعده حينما وكزه (صهيب) قائلًا:

•عينيك يا بابا، بدل ما اخلعهم لك، ما أحبش اللي يبص لبنت من بناتي، آه بقولك أهو.

ابتسم (قاسم) ليجيب في مكرٍ قائلًا:

•ما تهدي الدور شوية يا صاصا، هو محدش بقى عنده بنتين غيرك ولا ايه؟!

تعالت ضحكات (صهيب) فسأله في اهتمامٍ قائلًا:

•قولي صحيح، مكنتش عايز تيجي معانا الجمعة دي ليه؟
غمغم حين زفر في غضب:
•أخوك يا عم كل ما يلاقيني خارج يسمعني الحوار المعتاد، الامتحانات قربت وانت لازم تذاكر، انت في ثالثة ثانوي وإلخ إلخ.
بادله وصلة التذمر الموجهة تجاه شقيقه ليدافع عنه قائلًا:
•وهو عايز ايه؟! انت مجتهد وهتحقق حلمك، وبكره هتبقى أحسن بشمهندس في مصر.
أجابه في مللٍ قائلًا:
•وهو عارف دا بس لازم يفكرني كل ساعتين بحلمي لأكون نسيته ولا حاجة.
ارتفع صوت ضحكاته مع صديقه الذي يصغره سنًّا، فـ (قاسم) أقرب إليه من أخيه نفسه، وصلوا إلى (المول) الضخم المنشود، حرص (صهيب) على اقتناء كل ما وقعت عليه عينا (ريانا) لصمتها ورفضها التعبير عما تريد، اشترى لها الكثير من الملابس ثم جلسوا لتناول الغداء بأحد المطاعم الموجودة داخل (المول).. تفحص (صهيب) ساعة يده في دهشةٍ حينما أوشك موعد مقابلته مع (أيمن) صديقه، المحامي الذي وكله للدفاع عن (غصن) فلمعت عيناه بفكرةٍ صائبة يستغل بها الوقت، فطلب من (قاسم) الذهاب مع (ريانا) إلى إحدى المكتبات المجاورة لشراء ما يلزمها للدراسة ريثما ينتهي هو من شراء الملابس لابنته وابنة أخيه، وبالفعل تفرقا،

فراقبت (ريانا) (قاسم) على استحياءٍ، ولج إحدى المكتبات الكبيرة، وتطلع إلى الكتب والأقلام أمامه، فبدا حائرًا، لقد اعتاد شراء ما يلزمه فقط، أما (تاج) شقيقته، فكان يترك أمرها لوالده، رفع عينيه العسليتين للأعلى ليراقب الكراسات الموضوعة أمامه ثم قال حين استدار برأسه تجاهها:

•ها يا (ريانا) اخترتي ايه؟

نظراتها المرتبكة التي تمر على محتويات المكتبة قد سُلطت عليه، فرفعت كتفيها في حيرة، ابتسم (قاسم) ليسألها في دهشةٍ قائلًا:

•اتمنيت تساعديني بس حاسس إنك تايهة أكتر مني!

اخترقت ابتسامتها قلب هذا الطالب في غموضٍ قائلة:

•أنا معرفش حاجة، ماما اللي كانت بتجيب لي كل حاجة.

رفع حاجبيه في سخريةٍ، فجذب إحدى الكراسات من أمامه ليضعها في السلة التي يحملها بيديه قائلًا في مرح:

•طلع زي ما تخيلت، البنات ضعيفات الشخصية، بيرموا أي حاجة تخصهم لأمهم، إحنا بقى بنعتمد على نفسنا في كل حاجة.

راقبته (ريانا) حين انتقل من رفٍّ إلى آخر لتجيب بنظرةٍ مهتمة بما يختاره:

•أكيد كنت باثق في ذوق ماما، وبصراحة مكنش ليا حد غيرها.

أطرق ليسألها في دهشةٍ قائلًا:

•والدك الله يرحمه مكنش بيشتريلك حاجات الدراسة؟!

أومأت نافية لتجيبه في صوتٍ مختنق:

•عمره ما جابلي حاجة، هو آه كان بيدي الفلوس لماما بس عمره ما اهتم باحتياجاتي، حتى خروجات العيد كان بيخرج مع أولاده بس، أنا لا.

تألم قلبه لأجلها لكنه ابتسم لينفض عنها غبار الذكريات القاسية قائلًا:

•ولا يهمك، طول ما أنا موجود هساعدك باللي هعرف اختاره، بس حلو وحش، انتِ وحظك بقى.

بادلته الابتسامة حين أومأت في حماسةٍ قائلة:

•ماشي، موافقة.

منحها نظرة طويلة ثم أكمل ما يفعله في ارتباكٍ، يشعر تجاهها بشيءٍ غريب، شيءٍ أقرب للشفقة لكن ترى ماذا سيصبح حينما يترعرع كلاهما؟!

بعد الانتهاء من الشراء، تحركا عائدين للمنزل، توقفت سيارة (صهيب) في الأسفل، فهبطوا جميعًا حاملين الأكياس الضخمة، عاونهم (صهيب) حتى دخلوا المصعد ثم غادر بسيارته سريعًا للقاء رفيقه حتى يجد مخرجًا من تلك المُعْضِلة...

يومًا آخر مر عليها وما زال عقلها يفترض ما تتلقاه ابنتها من عذابٍ قاسٍ على أيديهم، اغرورقت عيناها بالدموع لتندم على ما ارتكبته، ليس لحبها الزائف لأبيها بعد مقتله لكن جراء الثمن القاسي التي

دفعته طفلتها الرقيقة، أغلقت عينيها في قوةٍ لتحارب رجفة جسدها التي تهاجمها كي تعيدها لحالتها النفسية المعتادة حينما تتذكر أباها، وبالرغم من ذهابها إلى طبيبة نفسية من قبل لكنها لم تتمكن من إنقاذها مما يحدث لجسدها البائس، ارتعشت أصابعها وبدا كأنها تصارع هلاوس رهيبة، تخنقها حتى في معتقلها، تمددت على الأرض في استسلامٍ للألم الذي سيهاجمها بعد قليل، فقد اعتادته منذ أعوامٍ بفضل زوجها اللعين وأبيها، ظلت على حالها البائس حتى صباح اليوم التالي، إلى أن ولج الشرطي الذي أصبح الوجه المتكرر حينما يدخل ويطلبها للخروج إلى وكيل النيابة، نهضت (غصن) على قدميها في صعوبةٍ لتقف خلفه في هدوءٍ حين طرق باب غرفة مكتبه، فحينما استمع إلى صوته الخشن الذي يأمره بالدخول، فتح الباب، فتوارى في بطءٍ ليطوي صفحات حياتها السوداء بطاقة نورٍ لطالما نجحت في إضاءة حياتها المزرية، رأت من تجلس على المقعد المقابل لها في أفضل حالٍ وأفخم ثياب، لعقت شفتيها في توترٍ، تحاول أن تفسير ما يحدث، فربما ما زالت تتوهم وجودها، اهتز جسدها في قوةٍ حينما هرولت (ريانا) لتحتضنها كي تصبح شيئًا ملموسًا بين يديها، ففصلتها عن توقعاتها الخطأ، رفعت وجهها بيدها المرتجفة لتتأملها في دهشة، فاحتضنتها في قوةٍ لتردد في بكاءٍ حارق:

• بنتي!

بكت الصغيرة، فجلست (غصن) أرضًا لتقبل جسد صغيرتها، وما

زالت تهمس في دهشة:

•(ريانا)!!

ربتت الصغيرة على كتفها لتبكي في قهرٍ على ما أصابها بسبب ما فعلته لأجلها، خانته دمعة حارقة حين رأى ما يحدث بين الأم وابنتها، حتى سكرتير النيابة بكى رغمًا عنه، فالمشهد ينطق له الحجر، أشار (صهيب) إلى السكرتير بالخروج قليلًا، وحين خرج، ترك مكتبه ووقف بجوارهما، نظرت (غصن) تجاهه، لقد اخترق حياتها البائسة ليحمل مصباحًا صغيرًا مشتعلًا بنورٍ فقدته في ظلمات تلك الحياة، طالت نظراتها إليه لكنه فضل أن تستمع إلى صوت ابنتها مرة أخيرة، فقال في صوتٍ عذب:

•هسيبكم مع بعض شوية.

وهم بالمغادرة، فأمسكت الصغيرة بيده لتسأله في قلقٍ يعتريها من زيارة هذا المكان المخيف:

•رايح فين يا بابا (صهيب)؟!

ابتسم مداعبًا شعرها في رفقٍ ثم قال:

•هاكون بره يا (ريانا) عشان تاخدي راحتك انتِ وماما.

بادلته الابتسامة، فخرج ليترك مساحة لوداع ابنتها الطويل، فتساءلت (غصن) في دهشةٍ قائلة:

•بابا (صهيب)!

أومأت ابنتها، فنهضت (غصن) ثم جلست على الأريكة القريبة منها

لتنظر إلى ابنتها في فضولٍ متسائلة:

•احكيلي كل حاجة.

قصت (ريانا) عليها ما فعلته زوجة أبيها من سبابٍ وضربٍ مبرح، وكيف حررها (صهيب) من قيودها القاسية، كما أخبرتها باصطحابه لها إلى منزله ومعاملته الحنون كأنها ابنته التي أنجبها، ووالدته وابنتها حتى (قاسم) أخبرتها بأمره، تفاصيل هذا اليوم الذي منحها حياة متكاملة لليلة واحدة، أصاب (غصن) الذهول حين استمعت ما لا يصدقه عقل، هل ما زال يتحلى بعض الأشخاص بأخلاقٍ كهذه؟! ظلت معها ساعة كاملة، منحتها طاقة لتكون على استعدادٍ لقضاء عمرها كاملًا خلف القضبان، حتى وإن اضمحلت عزيمتها لكن الأمل عاد لينعشها برؤية ابنتها، فُتح الباب ليقطع لحظات السعادة المؤقتة، فدخل (صهيب) ليشير بعينيه إلى (غصن) التي فهمت ما يقصد ثم أخرج هاتفه ليبعث برسالةٍ نصية إلى من ينتظره في السيارة مع المحامي ليضمن عودة (ريانا) للمنزل، مدة لقائهما قد انتهت، ويبدو أنها ستسحب روحها بهذا الرحيل القاسي، فلطالما كان اللقاء بهجة والرحيل مرتبط بالحزن والألم، انسابت الدمعات من كلاهما، تشبثت (ريانا) بوالدتها باكية في صوتٍ مسموع، فأغلقت (غصن) عينيها، تحاول الثبات، فمسدت خصرها في رقة لتذكرها بوعدها الذي قطعته منذ قليل قائلة:

•إحنا قلنا ايه؟ أنا هبعد شوية بس هرجع لك تاني، عايزاكِ بس

تفوقي لمذاكرتك وتعاملي الناس اللي انتِ قاعدة معاهم باحترام.
وأكدت مجددًا:

•سامعة يا (ريانا)؟

همست في انكسارٍ قائلة:

•حاضر يا ماما، بس أنا عايزة أفضل معاكي شوية، لسه مش لحقت أقعد معاكي.

شعرت بسكينٍ يمزق نياط قلبها لكن لا بد أن تتحمل، مجبرة على الصمت، مجبرة على الوداع الأخير، حاول (صهيب) إبعادها عن والدتها لكنها ما زالت متشبثة بها، طُرق الباب، فرفع (صهيب) صوته في ثقةٍ بمن يقف في الخارج قائلًا:

•ادخل يا (أيمن).

ولج رفيقه بصحبة (قاسم) ليجد (ريانا) تتشبث بجلباب امرأة، يبدو أنها أمها، بكاؤها أحزنه للغاية، وخصوصًا حينما رأى عمه يبذل قصارى جهده ليخرجها، فأشار بيده تجاه (قاسم) الذي راقب ما يحدث قائلًا:

•خدها على البيت يا (قاسم).

أومأ حين اقترب منها قائلًا في هدوء:

•يلا يا (ريانا).

تطلعت إليه في حزنٍ، كأنها ترجوه أن يتركها قليلًا، أمسك (قاسم) يدها ليجبرها على المضي قدمًا، انتحبت في قهرٍ لتنصاع ليده،

وتطلعت إلى (صهيب) لتردد في أنفاسٍ بطيئة:

•طيب انتوا هتعملوا فيها ايه؟

أشار (أيمن) إلى (قاسم) بالتوقف ثم دنا منها ليخبرها في شفقةٍ قائلًا:

•ما تخافيش يا حبيبتي، أنا هنا عشان أساعد ماما.

نظرت إليه في رجاءٍ، فحينما أتت مع (صهيب) في السيارة، كان يجلس هو في الخلف بجوار (قاسم) فتبادل الحديث معها، وحينها وعدها بأنه سيساعد والدتها، أطرقت (ريانا) ثم تحركت لتعيد في لهجةٍ مؤكدة:

•ما تخافيش يا ماما، لو عمو مخرجكيش من القضية، أنا هبقى محامية وهدافع عنك عشان أخرجك من اللي انتِ فيه.

ابتسمت (غصن) الباكية ثم ضمتها إلى صدرها قائلة في صوتٍ متقطع من أثر البكاء:

•إن شاء اللّه يا حبيبتي، يلا روحي معاه وخلي بالك من نفسك.

عاد البكاء ليشق صدرها، فقال (صهيب):

•طيب يا (ريانا) عشان تكوني زي عمو، لازم تدرسي وتجيبي مجموع كبير عشان تدخلي كلية حقوق وتقفي قدام القاضي وتدافعي عن ماما، طول ما انتِ واقفة هنا مش هتقدري تعمليلها حاجة، لازم تروحي مدرستك وتجتهدي عشان تحققي كل دا.

التمعت عينا الصغيرة، وغمغمت في حماسةٍ حين انصاعت ليد

(قاسم):

•هذاكر وهدافع عنها.

خرجا، فنظر (قاسم) تجاه أمها الباكية، فبعدما رآها ورأى دموع وداعها الأخير لابنتها، أشفق على حالها، غادر مركز الشرطة بصحبتها، وأوقف سيارة أجرة لتعيدهما للمنزل، أمسك بيدها ليمنحها نظرة محفزة كي تحارب لتحقق رغبتها في الدفاع عنها.. ليكون هو أول رفيق لرحلتها الشاقة...

بعد خروج ابنتها من غرفة مكتبه، انحنت (غصن) لتقبل يد (صهيب) فجذب يده سريعًا حين عنفها قائلًا:

•ايه اللي بتعمليه دا؟! ميصحش.

أجابت باكية:

•جميلك دا في رقبتي طول العمر، ومهما عملت مش هقدر أردهولك.

قال في لهجةٍ جادة:

•أنا معملتش حاجة.. (ريانا) دخلت الفرحة لبيتي ولبنتي، بنتي اللي أمها رمتها وراحت اتجوزت واحد تاني.

ثم توقف هنيهة قبل أن يضيف في ابتسامةٍ هادئة:

•كانت على طول وحيدة وحزينة، بس دلوقتي مبقتش كدا بفضل ربنا ثم (ريانا).

وقال في كلماتٍ مباشرة:

•ما تخافيش عليها.. (ريانا) بنتي من اللحظة اللي دخلت فيها

بيتي، هعلمها وهخليها تبقى حاجة كبيرة زي ما حلمتي إنها تكون.

حدقت إليه بعينين تائهتين، استعاد (صهيب) ثباته، فأشار لها بالجلوس أمام مقعد صديقه، جلست مقابله حين وزعت نظراتها بينهما في توترٍ، ولج السكرتير غرفة المكتب ليجلس على مقعده هو الآخر، ويبدأ الإجراءات، يبعد تعاطفه معها عما يفعله، فختم الجلسة قائلًا:

•هيتم دلوقتي عرضك على الدكتور اللي هيحدد حالتك كويس، ولو أثبت فعلًا إنك مريضة نفسيًّا، هيتم تحويلك ل ٨ غرب، ودا بالنسبة لك رحمة عن عذاب السجون واللي بيحصل فيها.

لمع الخوف في عينيها، فارتجف جسدها، قال (أيمن) مؤكدًا لها في ثباتٍ انفعالي:

•وبناءً على تقرير الدكتور دا هنقدم الورق اللازم في أول جلسة، وبناءً عليه هيتم تخفيف الحكم وتحويلك للمستشفى.

أومأت في استسلامٍ، يكفي رؤية ابنتها في حالةٍ أكثر من جيدة، حبس أنفاسه في ترقبٍ، وسألها على مهلٍ قائلًا:

•جاهزة؟

أشارت له باكية، فضغط على زر مكتبه الجانبي ليجذبها الشرطي في هدوءٍ تجاه واجهتها المنشودة، وقبل أن تخرج من غرفة مكتبه، استدارت تجاهه لتودعه قائلة في ابتسامةٍ شاكرة:

•كل ما هادعي لبنتي هادعي لك لأنك كنت السبب في راحة بالي.

تراجع بنظراته عنها حتى لا يتألم شفقة عليها، فقال في ملامح واجمة حزينة:

•خلي بالك من نفسك.

أجابته في صوتٍ مبحوح:

•إن شاء اللّه.

ثم غادرت مع الشرطي الذي ساقها إلى مصيرها المحتوم بشهادة طبيبٍ متخصص، أقر أنها مريضة بالفعل جراء ما تعرضت له من اعتداءٍ وحشيٍّ من أبيها وزوجها، وبناءً على ما قُدم للمحكمة من مستنداتٍ وتقارير تثبت ذلك، وبعد الاستماع إلى مرافعة النيابة تم تحويل (غصن) إلى قسم ٨ غرب للمعالجة أولًا قبل أن تقضي مدة عقوبتها حيث كان نصيبها في عنبر واحد مع تسع سجينات أشد خطورة، فقد قتلن رجالًا بطريقةٍ لا يستوعبها العقل البشري، وكانت هي العاشرة، فالأطباء يخشون التعامل معهن حينما يعلمون بتفاصيل الجرائم البشعة اللاتي ارتكبنها حيث كان ضمهما في عنبرٍ واحد لأنهن أشد خطورة بين النساء القاطنة في ٨ غرب، قضت (غصن) أيامًا وليالي داخل هذا المشفى، تمتنع عن الحديث وتجلس على فراشها المتهالك ذي الغطاء الرمادي الخفيف ليل نهار، فلم تعد تمتلك الطاقة لمناقشة أحد، ففي داخلها شيء قد مات ولم تعد تبالي بما يحدث حولها، كأن عقارب الساعة واقفة، فعلقت بين زخات الماضي وحاضرها الواقعي، فلم يعد هناك سوى أن تنهار، تتلاشى،

تنصهر، تتفتت في جحيم صنعته بيدها، فحتى نفسها لم تعد قادرة على الهروب منها بعدما قضت حياتها هروبًا بين الأزقة، باكية باحثة عن أي طريقة تصل بها إلى بر السلام والراحة لكنها مفقودة منذ البداية!

مضت الأيام والشهور، وما زالت تدرس في جدٍّ واجتهادٍ لتحقيق حلمها بتحرير والدتها من حبسها القاسي، فاليوم هو المصيري بالنسبة لها، اللحظة المترقبة لعناء سنواتٍ من التعب، حصادها في هذا الأسبوع الشاق من امتحانات الثانوية العامة، أنهت (ريانا) آخر اختبارٍ لها ثم خرجت من المدرج باحثة عنه بعينيها، اهتدت نظراتها الحائرة حين التقت عينيه الساحرتين ليمنحها ابتسامة مهلكة ويشير بأن تقف محلها وسيصل إليها، بالفعل تخطى (قاسم) الطلاب حتى وقف أمامها، وسألها في اهتمام قائلًا:

•طمنيني عملتي ايه في الامتحان؟

أجابت ضاحكة حين رفعت كتفيها قائلة:

•قلت لك أنا ميتخافش عليا.

ابتسم في حبورٍ قائلًا:

•طيب يا عم بالراحة علينا.

أفلتت حقيبتها لتحرر السحاب ثم أخرجت عدة أوراق مطوية لتقدمها إليه بعينين تحتجزان العبرات، رأى (قاسم) ألمًا عميقًا على ملامحها، فحركه فضوله لمعرفة محتوى الورق الذي آلمها لهذه الدرجة، فتحها

ليجد رسمة لوالدتها، قد خطتها يدها في حرفيةٍ بعد دراسةٍ دامت لأكثر من تسعة شهور، فقال في إعجاب:

•ايه الجمال دا؟ تسلم ايدك بجد.

شردت في عينيه قليلًا ثم قالت في صوتٍ يملأه الشجن:

•انت اللي خلتني أتعلم الرسم وقدمت لي في الكورس دا، ويمكن دا اللي خلا يكون ليها وجود في حياتي بالرسومات اللي أنا بارسمها.

أمسك (قاسم) يدها ليعقب قائلًا في نبرةٍ صادقة:

•وهافضل جنبك لحد ما تحققي كل أحلامك، وأولهم خروج والدتك.

تطلعت إليه في خجلٍ حين أمسك بيدها التي لم يتركها منذ سنواتٍ طويلة، لقد نبض قلبها بالحب تجاهه، وهي تعلم حبه الكبير لها، وضعت يدها في الحقيبة مجددًا ثم أخرجت آخر ورقة بيضاء مطوية، ففتحها (قاسم) ليجد أنها قد رسمته، ابتسم في سعادةٍ حين رأى تفاصيل وجهه وعينيه، فتساءل في مكرٍ:

•انتي أخدة بالك من ملامحي أوي كدا؟!

شردت نحوه ليتأملها في هذا القرب الخطير، رفعت (ريانا) يدها لتجذب غطاء رأسها الذي يضيء وجهها الأبيض كنوعٍ من الهروب منه، ابتسم حين رآها تخشى التطلع إلى عينيه، فركت أصابعها في توترٍ ملحوظ، قطعته حينما هربت بسؤالها عن جامعته قائلة:

•طيب وامتحانات كلية الهندسة امتى؟!

لم يرد أن يخجلها أكثر من هذا، فهمس ضاحكًا:

•الأسبوعين الجايين إن شاء اللّه.

ثم أشار لها بالتحرك معه ليعودا للمنزل، ويده تمسك يدها في إحكامٍ...

كانت مستلقية على الفراش كالمعتاد، مدفونة في بئرها المظلم بين ذكرياتها القديمة، وأخرى ما زالت علامة فارقة في حياتها، تنهدت (غصن) في تثاقل لتسترجع ملامح وجه ابنتها الذي صرخ فؤادها شوقًا إلى رؤيتها، أغلقت عينيها في محاولاتٍ فاشلة لرسم صورة لها بعدما زاد عمرها ثلاث سنواتٍ عن آخر مرة رأتها فيها، فعاد طيفها الباكي يسيطر عليها، سقطت وقد هاجمتها إحدى الذكريات السابقة..

*****

انطلقت تكبيرات العيد من المذياع ومكبرات صوت المساجد دون توقف، بهجة بقدومه بعد صيامٍ دام ثلاثين يومًا، نهضت (غصن) من جوار ابنتها لترتب لها ما سترتديه في هذا اليوم المنتظر، والذي سبقته بإعداد ترتيباتٍ لها ولابنتها الصغيرة ذات الأربع سنوات، استفاقت الصغيرة من نومها حينما هزتها (غصن) في رفقٍ لتناديها في حماسةٍ قائلة:

•يلا يا عمري، عشان تلبسي هدومك وتستعدي كدا.

ظلت في الفراش، تشعر بالحزن والكسل الغريب، استغربت من

سكونها هذا، فسألتها في ملامح جادة:

•مالك يا (ريانا)؟ مش بتردي عليا ليه؟!

تحولت نظراتها إليها، فهتفت في انكسارٍ كأنها يتيمة:

•هلبس ليه يا ماما؟ هو في حد بيجيلنا عشان ألبس!

شعرت بالألم لأنها تعلم الحقيقة، فحتى زوجها يقضي عيده بصحبة زوجاته وأولاده، كأنها ليست ابنته، حاولت كثيرًا أن تستعطفه تجاه ابنته البائسة لكنه كان ينحاز إليهن، فهي كما أخبرها نزوة جسدية فقط، بدا الوجوم على ملامحها لتخرج من باب غرفة ابنتها وتجلس على المقعد البعيد في الردهة، تبكي في صمتٍ، فربما السكون والصمت عن البوح والشكوى هو مصيرها الأبدي، ليت الأمر يتعلق بها، لظلت عمرًا كامل تعاني في ترحابٍ لكن الأمر يخص صغيرتها، أزاحت (غصن) دموع وجهها، وقد جال في خاطرها فكرة إسعاد ابنتها في يومٍ كهذا، فإن كان لا يزورهما أحد، لمَ لا تبحث عما يسعد ابنتها في مكانٍ آخر، عزمت على أن تجعل اليوم هو الأجمل في حياة (ريانا) فولجت غرفتها من جديدٍ ثم أضاءت المصباح لتشير لها بيدها قائلة:

•قومي البسي.

فتحت خزانتها ثم جذبت الجلباب الأسود لترتديه، استقامت (ريانا) على الفراش في دهشةٍ حين رأتها ترتدي غطاء رأسها فوق الجلباب، فسألتها في دهشة:

•هنروح فين؟!!

أجابتها (غصن) حين قدمت لها الفستان قائلة:

•هننزل عشان أفسحك في المكان اللي تحبيه.

لمعت عيناها بوميضٍ ساحر لتصرخ في حماسةٍ قائلة:

•بجد يا ماما؟!

أومأت لتؤكد قائلة:

•طبعًا بجد، بس يلا البسي الأول.

جذبت الفستان منها ثم هرولت تجاه الحمام المجاور للغرفة في سعادةٍ، تراقصت بضحكاتها التي روت قلبها لتخرج بعد قليل تتباهى بفستانها الجديد في بهجة، صففت شعرها جيدًا ثم ارتدت حذاءها مسرعة لتكون مستعدة، جذبت (غصن) حافظة نقودها ثم أمسكت بيد ابنتها لتهبط كلٌّ منهما في حذرٍ دون إصدار أي صوتٍ حتى لا تضايقهما إحدى زوجاته، وحين خرجت من المنزل، هرولت الصغيرة راكضة لتتراقص بذراعيها في الهواء كأنها كانت في سجن، قد خرجت منه للتو، تأملتها (غصن) مشفقة، خصوصًا حينما وصلا إلى الملاهي التي تعج بالأطفال، تركتها تفعل كل ما تمنت، صعدت أكثر من أرجوحة وعين (غصن) تتأملها دون ملل، جلست على الحشائش الخضراء لتوزع الطعام الشهي على قطعةٍ من القماش ثم نادتها لتناول القليل، لم تجبها، فزفرت في غضبٍ قائلة:

•وبعدين بقى يا (ريانا) هافضل أناديكي كتير كدا؟! تعالي كلي وارجعي العبي تاني.

أتاها صوتها اللاهث لفرط حركتها:

•بعدين يا ماما، سبيني ألعب قبل ما نرجع البيت دا ومنرجعش هنا تاني.

بدا الوجوم عليها حين تذكرت هذا المنزل المقيت، فأحست بدمائها الثائرة تتدفق في عروقها البارزة، فاشتدت أنفاسها في حدةٍ لتجيبها في صرامةٍ قائلة:

•تعالي كلي يا (ريانا) هنيجي هنا وقت ما تحبي ومحدش هيقدر يمنعنا.

جلست مقابلها لتسألها في إحباطٍ تمكن من لهجتها:

•بجد يا ماما؟

قربتها إلى صدرها لتطبع قبلة حنون على وجهها قائلة:

•بجد يا قلب ماما.

ثم قربت لقمة صغيرة مغموسة في العسل لتضيف مبتسمة:

•نفسي أشوف الضحكة الجميلة دي على وشك دائمًا.

منحتها ابتسامة مشرقة لتتناول ما تقدمه لها من طعامٍ ثم تركتها تركض قليلًا بين زهرات عباد الشمس التي تملأ الحديقة الجانبية للملاهي لتشير لها متفحصة ساعتها ثم قالت:

•يلا يا (ريانا).. اتأخرنا يا حبيبتي.

اقتطفت الصغيرة إحدى الزهرات لتقربها من أنفها في بهجة ثم هرولت تجاه (غصن) التي أمسكت بيدها لتخرج على الفور من

الحديقة ثم أوقفت سيارة أجرة لتعود للمنزل.. صعدت شقتها لتتسلل بصحبة ابنتها حتى أغلقا باب الشقة، فاستندت كلتاهما إليه في ضحكاتٍ مرتفعة، كأنهما في سباقٍ شرس مع شياطين الإنس، تلاشت ابتسامة (غصن) تدريجيًّا حينما رأت زوجها يجلس على المقعد المقابل للباب، فنهض (ممدوح) عن المقعد ليسألها في غضبٍ قائلًا:

•كنتي فين انتِ وبنتك من غير ما تقولي لحد؟

تعلم ما سيصيبها، خشيت أن يصيب ابنتها السوء هي الأخرى، فدفعتها في رفقٍ ونظراتٍ حذرة قائلة:

•ادخلي انتِ أوضتك يا (ريانا) وأنا شوية وهاجيلك.

علمت الصغيرة رسالتها، فولجت غرفتها سريعًا لتجلس خلف بابها باكية في خوفٍ وفزعٍ حينما تسلل إليها صوت صراخ والدتها، اخترقت كلماته مسمعها حين صرخ قائلًا:

•شايفاني طرطور.. واخدة بنتك ونازلة من غير ما تقوليلي!!

أجابته باكية، تحاول تفادي الضرب:

•وأنا لو كنت قلت لك كنت هتوافق، وبعدين ما أنا ياما اتحايلت عليك تخرجها أو على الأقل تاخدها مع عيالك بس انت مش سائل فيها ولا كأنها بنتك.

جذب خصلات شعرها ليدفعها في قوةٍ تجاه الحائط ثم عاد ليكررها مجددًا، وأضاف في سبابٍ قائلًا:

•أنا حر، مش على آخر الزمن هتيجي واحدة بنت ×××× وتحاسبني.

ثم تركها أرضًا، تمسك رأسها في وجعٍ لتنال آخر ضرباته بحذائه الذي استقر في بطنها ثم غادر في برودٍ كأنه لم يفعل شيئًا، تقيأت ثم حاولت الوقوف كي لا تفزع صغيرتها التي تتأملها بعينين باكيتين، ألقت زهرة عباد الشمس من يدها كأنها مقتت الدنيا بمتاعها وهرولت إلى حضن والدتها لتردد في صوتٍ محتقنٍ قائلة:

•مش عايزة أخرج تاني، أنا آسفة مش هقولك كدا تاني، هلبس على طول وهقعد معاكي، مش عايزة أخرج أبدًا.

بكت (غصن) حين ربتت على كتفي صغيرتها في انكسارٍ غلف قلبها وجسدها الهزيل...

صوت العربة المعدنية التي تدفعها إحدى الممرضات، أخرجها من شرودها القاسي، فرفعت عينيها تجاه شرفة العنبر الحديدية لتهمس في صوتٍ مرتعش قائلة:

•يا رب عوض بنتي عن كل اللي مقدرتش أحققهولها.

اليوم مهم للغاية، فتحت (ريانا) خزانتها لتجذب العلبة الحمراء المربوطة بشريطٍ من اللون الأصفر، أزاحته عن جسد العلبة في ابتسامةٍ هادئة، رائحة (البرفيوم) الخاص به الذي يتعمد نثره على الهدايا التي يقدمها لها، تجعلها تدمن وجوده بجوارها، فحتى حينما ينشغل عنها لساعاتٍ قليلة بالعمل في الشركة، تُخرج هداياه لتستنشق رائحته لكن هذا اليوم يعد مختلفًا للغاية، اليوم ستحتاج إلى كل دعمٍ قدمه لها (قاسم) وأيضًا ستحتاج إلى هديته الثمينة التي احتفظت بها منذ

دخولها كلية الحقوق، أخرجت المعطف الأسود والقبعة السوداء من صندوق الهدايا، ضمتهما إلى صدرها والدموع تتراقص في عينيها فرحةً لقرب تحقيق وعدها الثمين لوالدتها، حان الوقت لترتدي هدية (قاسم) التي نسجها في حب، ارتدت المعطف والقبعة ثم ألقت نظرة متفحصة على نفسها أمام مرآتها الطويلة لتدعو أن يوفقها الله، أجل هي تعمل في مكتب صديق (صهيب) كما وعدها لكنها كانت في حاجةٍ إلى تخرجها أولًا قبل أن تبدأ أي خطوةٍ في سبيل تحريرها...

طرقات على باب الغرفة جعلتها تستدير في سعادة لرؤيته، ولج (قاسم) ليقف في بذلته السوداء الأنيقة، وشعره المصفف للخلف بحرفيةٍ، يتطلع إليها بعينيه المهلكتين، فارتسمت ابتسامة إعجاب على ثغره، وانحنى في حركةٍ مضحكة قائلًا:

•سواقك جاهز يا ملكة.

ابتسمت (ريانا) لتدنو منه حاملة طرف معطفها في غرورٍ مصطنع ثم قدمت له يدها، فأمسك بها ليتحرك تجاه الباب ونظراته مسلطة عليها حتى أنه لم يرَ من يقف أمامه عمدًا ليصطدم به، فاستدار إليه ليحدجه قائلًا:

• بص قدامك لرقبتك تتكسر يا بشمهندس.

رفع حاجبيه في امتعاضٍ، وقد بدأ الشجار المعتاد قائلًا:

•خليك في نفسك انت بس يا صاصا، والدنيا هتبقى حلوة وكله تمام.

ضيق (صهيب) عينيه في مكرٍ قائلًا:

●ولد، انت نسيت إني عمك ولا ايه؟!

أجابه مبتسمًا ليجذب (ريانا) في قوةٍ ويهرول تجاه الباب قائلًا:

●لا، انت اللي نسيت إنها ملكي أنا وخلاص كلها كام شهر وهنعمل الخطوبة والفرح، وبعدها تغني ظلموه.

واختفى بها من أمام عينيه، تعالت ضحكات الجدة حين راقبت ما يحدث بين ابنها وحفيدها، فاستدار (صهيب) تجاهها ليشكو إليها قائلًا:

●شايفة الولد يا ماما ولا كأني واقف!

أجابته السيدة (نسرين) مبتسمة:

●أنا مش عارفة انت هتفضل حاطط نقرك من نقره لحد امتى!

أجاب مبتسمًا:

●مبحبش أحدد مدة أنا.

ثم رفع صوته في حنقٍ لتأخر ابنته الأخرى:

●يلا يا حبيبتي، كدا هنوصل بعد ما الحفلة تخلص.

خرجت (مرين) من غرفة جدتها قائلة في تذمرٍ:

●في ايه يا باشا؟ ملبسش وأتشيك كدا يوم حفلة تخرج أختي ولا ايه؟

منحها نظرة متفحصة ثم قال في خوف:

●انتِ ناوية تتخطفي وراها انتِ كمان وتسيبوني لوحدي.. صح؟!

قالت ﻓﻲ دلالٍ:

•يعني لو شاب عسل وشيك زي بابي كدا، مفيش عندي أي مانع.

تجهمت ملامحه ليضيف ﻓﻲ عبوسٍ قائلًا:

•أهو دا اللي كان ناقص، مش كفاية واحدة؟

ثم لف يده حول كتفيها ﻓﻲ خوفٍ ليتجه معها للخروج وضحكات والدته تخترق مسمعه...

استلمت بيدها شهادة تخرجها وسط جوٍّ حافل بالتصفيق الحار، ازدادت بهجتها بوجود كل أفراد عائلتها، وعلى رأسهم معشوق طفولتها وأبيها الداعم لها، تطلعت إلى الفراغ ﻓﻲ حزنٍ، قد تغلب على سعادتها حين افتقدت (غصن).. شعر بها نصفها الآخر، فاخترق الصفوف ليصعد إلى المنصة وسط نظرات دهشة الجميع لبكاء (ريانا) الحارق البعيد كل البعد عن دموع الفرح بهذا اليوم الذي يعد كجني ثمار المجهود المبذول طوال الأربع سنوات، سُلطت النظرات عليها ﻓﻲ ذهولٍ، وخصوصًا حينما وقف هذا الشاب الوسيم إلى جوارها كتذكارٍ لها بوعودها السابقة، بترت بيدها دمعاتها العاجزة ثم أمسكت بيده، فرفع هاتفه ليسجل تلك اللحظة المنتظرة إليه بصورةٍ تجمعهم معًا...

ما زالت تعاني داخل هذا المشفى المخيف، عام يليه الآخر، ما زالت تتقاسم وقتها بين النوم والجلوس وحيدة، تنتظر وتترقب وعد ابنتها القاطع الذي يمنحها أمل الحياة المفقود، تعلم أن حياتها انتهت أبديًا لكن عينيها ترغبان ﻓﻲ وداع ابنتها الأخير، ترغب ﻓﻲ رؤيتها الآن بعدما

مر أكثر من تسع سنوات، ترسم لها صورة في مخيلتها على الدوام، ليتها تعلم أنها ترسم لها صورة على حوائط المعتقل البائس، تمقت ذاتها حينما تسيطر عليها حالتها المعتادة كل يوم، فحتى الأطباء في هذا المشفى المتدني، لم يتمكنوا من مساعدتها، في داخلها أمنية التخلص من نوبتها المتكررة حينما يهاجمها الماضي بذكريات زوجها وأبيها، من قبل كانت تتغلب على ذاتها لتحذف هذا الجزء من صفحاتها حتى تكمل حياتها لكنها الآن محتجزة بين أربعة جدران، همست (غصن) في صوتٍ هزيل مصاحب بآهاتٍ تئن لها الروح قائلة:

•وحشتيني أوي يا (ريانا).. وحشتيني أوي يا بنتي.

هبطت دمعة حارقة على وجنتيها لتصل إلى روحٍ أخرى معذبة، روحٍ تزف إليها ألم جسدٍ آخر يُعذب في مكانٍ بعيد، وقفت أمام المرآة تتطلع إلى فستانها البنفسجي الطويل، تتأمل غطاء رأسها الملتف حول رقبتها وتاجها الذي يزينه، ومع ذلك تهبط دموعها دون توقف، ما زالت تقف أمام المرآة وتأبى الخروج إلى من يترقب خروجها بقلبٍ يخفق في شوقٍ إلى رؤيتها، تسارعت النبضات، وسيدها الارتباك والاستحياء حينما رأت انعكاس صورته في المرآة، يقف من خلفها في صمتٍ ليتأمل ملامح وجهها وفستانها الرقيق، عبثت بأصابعها في خجلٍ واضح، فرفعتهم لتزيل تلك الدمعات العالقة بأهدابها، مرر يديه حولها ليجبرها أن تستدير تجاهه، رفعت (ريانا) عينيها تجاهه في نظرةٍ مرتبكة، فابتسم (قاسم).. تناست رفقته طوال تلك السنوات، لقد

كانت جوهرته الثمينة، يحفظها حتى من نفسه التي تشتاق إليها، بتر شوقه إلى ضمها لصدره حينما كان يستمع لشكواها إليه، اكتفى بأن يشاركها يومها منذ طلوع الشمس حتى ليلها، لقد كانت تشاركه أحلامه، ليس مجرد حب كما لخصته عائلته بل أنه عشق مميت، يرتبط بالروح قبل أن يصل إلى القلوب...

خرج صوته الخشن ليتأملها في نظرةٍ جعلت وجهها أحمر كحبات الكرز:

•ايه الجمال دا؟! أنا خايف أخرجك للناس اللي برة دول، عايز أخبيكي جوايا، جوا قلبي اللي اتمنى اللحظة دي وصبر كل السنين دي.

اغرورقت عيناها بالدموع ليبتسم حين قرأ ما تدونه عيناها في حرفيةٍ معتادة، رفع أصابعه في رفقٍ ليزيل دموعها التي تجلد قلبه وتعذب روحه ليخبرها في هدوءٍ قائلًا:

•متخافيش يا (ريانا).. لسه فاكر وعدي ليكِ، الفرح هيتعمل بعد خروج والدتك من المصحة.

ابتسمت في بهجة، ما زال يتذكر وعده لها بعد سنواتٍ عديدة، ورغم حرصه على التعامل معها إلا أنها كسرت هذا الحاجز واحتضنته هامسة:

•كنت عارفة إنك مش هتكسر فرحتي يا (قاسم).

ارتجف قلبه كالطفل الصغير الذي لا يعلم كيف يخطو أو يتحدث، بدا

ثابتًا، يحاول السيطرة على ذاته باحتضانها، بكت (ريانا) لتسترسل قائلة:

•كنت جنبي في كل خطوة بامشيها يا (قاسم) حتى لما استسلمت وأنا بحاول أخرج ماما من اللي هي فيه، كنت أنت جنبي، ودلوقتي وبعد ما وقفت على رجلي وبقى عندي مكتبي وشغلي الخاص، قدرت أقدم طلب للمحكمة بنقل ماما لمستشفى خاصة على نفقتي، رجعلي الأمل إني ممكن أشوفها تاني.

ضمها إلى صدره ليؤكد حديثها في ثقةٍ قائلًا:

•وهيتقبل يا حبيبتي، أنا واثق ان التصريح هيخرج على طول، خصوصًا بعد التقرير الطبي.

ابتعدت عنه لتحدق إلى عينيه في ترقب، رفع (قاسم) يده مقابلها، فابتسمت لتناوله يدها كما اعتادت، تشبثت به لتخرج معه، فهو الأمان لها ومنقذها من سقطات الخيبة والخذلان، خرجت معه إلى الردهة الطويلة حيث كانت جدتها تعد لها احتفالًا صغيرًا للخطبة، بعد أن رفضت أن يعد لها حفل ضخم، أخبرت أباها أنها تود الاحتفال لكن بعد خروج والدتها...

وقفت (ريانا) أمام (صهيب) فرفع يديه ليحتضن وجهها مبتسمًا، فاغرورقت عيناه بالدموع حين طبع قبلة طويلة على جبينها قائلًا:

•مبروك يا حبيبتي، ألف مبروك.

احتضنته باكية، ذاك الأب الحنون الذي أرسله الله (عز وجل) رحمة

لها، وها هي الآن تحقق أحلام والدتها بعدما تخرجت واختارت شريك حياتها بفضل للّه ثم بفضل هذا الرجل العظيم، قدم لها كل شيءٍ دون مقابل، كانت كابنةٍ له، احتضنتها (مرين) في سعادةٍ عارمة، ودمعة تشق الغبار عن عينيها رغمًا عنها، فحتى إن لم تتركها الآن لكنها سترحل إلى منزل زوجها كالمعتاد، اعتادت وجودها في حياتها بعدما كانت وحيدة تعيسة، جففت دموعها قائلة في صوتٍ باكٍ:

•ألف مبرووك يا حبيبتي، ربنا يفرح قلبك يا رب.

ربتت (ريانا) على كتفها لتجيبها قائلة:

•اللّه يبارك فيكِ يا روحي.

ثم تفحصت الأعين لتنحني قليلًا عليها وتهمس في مكرٍ قائلة:

•وعقبالك انتِ و(حسام).

تراجعت للخلف مبتسمة، فلطالما كانت منبع أسرارها، غمغمت (مرين) قائلة:

•يا رب، هو قالي هيجي يكلم بابا قريب.

أجابت (ريانا) في ثقةٍ قائلة:

•عارفة، كلمني أنا و(قاسم) وهو قاله هيحدد له ميعاد.

ازدادت سعادة (مرين) فكان من المستحيل أن تتزوج بمعيدها في الجامعة لكن صار المحال حقيقة حينما أخبرها بإعجابه بها، طلبت منه أن يمنحها بعض الوقت للتفكير، وبالفعل شعرت تجاهه بشيءٍ غريب، فعرفته إلى (قاسم) و(ريانا) فأخبره (قاسم) أن يأتي

لمقابلة عمه يوم الخطبة...

تبادل (صهيب) السلام الحارق مع رفيقه الذي يصغره سنًّا، وابن أخيه الوحيد ليأمره أن يحافظ على ابنته وإلا سيكون مصيره خلف القضبان، تعالت الضحكات بين الجميع، وختمت الأجواء بتبادل ارتداء خاتمي الخطبة، فعلا صوت الموسيقى الهادئة لتجذبهما (مرين) للرقص، رقصت (ريانا) بين يديه في خجلٍ، عيناها تهربان من لقاء عينيه، تحدث بكلماتٍ تستمع إليها لأول مرة:

•خايف يكون دا حلم واصحى منه.

تطلعت إليه رغمًا عنها، فابتسم لتجيبه قائلة:

•انت وجودك في حياتي حلم أساسًا.

ابتسم (قاسم) قائلًا:

•من أول يوم ظهرتي فيه مع عمي، وأنا شايفك حلم، طول السنين دي كلها وأنا قلبي بيتعلق بيكِ وخايف تكوني حلم صعب أحققه، بس دلوقتي خلاص انتِ قدامي وملكي.

حدقت إلى عينيه، ابتسامته تزيد ضربات قلبها كأنه على وشك تمزيق قفصها الصدري، رعشة جسدها حينما تلمس يده الخشنة كف يدها الناعم، تثير مشاعرها تجاهه، لقد أحبها في صدقٍ، فنجح في اختراق قلبها ومشاعرها، تحركت معه ليقود حركاتها يمينًا ويسارًا على إيقاع الموسيقى الهادئة، لقد ساد السكون بينهما تاركًا زمام الأمور للنظرات التي ترفرف لتبوح بمكنونات القلوب العاشقة، فربما حاربها المجتمع

لأنها ابنة مجرمة قاتلة لكن حينما يوجد أشخاص مثل (صهيب) وعائلته، يولد الخير والحب والسلام، حينها لن نجد فتاة تعاقَب لأجل جريمة ارتكبتها أم أو أب، حينها لن نسمع عن قصص الانتحار التي صارت كجزاءٍ اعتيادي من حياتنا، فربما إن وجد أحدهم اليد الممدودة لتربت على جروحه بدلًا من النبش فيها لتزيد ألمه وابتلاءه، لما أصبح هناك أشخاص تعاني قلوبهم حتى هذا الحين، وربما لن تجد قلوبًا منكسرة بيد أشخاصٍ يسيئون بالحكم عليهم، ومن المحتمل أن تجد قصة صادمة وسط كل تلك الأحداث كقصة (قاسم) و(ريانا) التي تحدت مجتمعًا كاملًا...

*****

الخاتمة

الأيام ثقيلة، تمر عليها في ترقبٍ وانتظار، عملت جاهدة طوال تلك المدة لأجل هذا اليوم، بعد أن منحتها المحكمة تصريحًا بنقل والدتها إلى مصحة خاصة بعد عددٍ من هيئة الاستماع وتقديم تقارير طبية تفيد بأن حالة والدتها تتدهور في المصحة الحكومية، خصوصًا بعد آخر تقريرٍ لها، الذي صدر بالتفصيل عن حالتها، لذا تركت في المصحة لهذا الوقت ولم يتم تنفيذ أي عقوبة عليها لتدهور حالتها، وبعد ذلك تمت الموافقة على أن تستكمل علاجها في مشفى خاص، وقفت (ريانا) برفقة (صهيب) و(قاسم) أمام الباب الخارجي لمشفى الأمراض العقلية، تترقب بصبرٍ نافد لترى والدتها بعد تلك السنوات، كانت تتنفس في صعوبة، عيناها معلقتان على الباب في انتظار، فُتح الباب الجانبي للبوابة الحديدية الثقيلة لتطل من خلفه (غصن) التي تتحرك كالدمية بصحبة ثلاث ممرضات، عيناها لا تفارقان الأرض، تخطو معهن في استسلام، فقدت كل مذاق الحياة، فأصبحت لا ترى أمامها ولا حتى تستمع لماً يدور حولها، تتبعهم في صمتٍ دون أن تتساءل عن مكان عودتها، انتابها الذهول حين حاولت أن تستوعب ما يحدث حولها، فتطلعت في دهشةٍ، خطوات حذائها المرتفع الذي

يحتك بالأرض، فيصدر صوتًا مسموعًا، جعل أذن (غصن) تنتبه للحركة القادمة نحوها، وقفت أمامها فتاة تبلغ من العمر ما يناهز السابعة والعشرين عامًا، ترقبت الممرضات حالتها خشية أن تتسبب في الأذى لابنتها بعد هذا العمر الذي قضته داخل هذا المعتقل، أشارت لهن (ريانا) كي يتركنها، تعجبت من ملامح تلك الفتاة الغريبة عنها، فتطلعت إلى ملامحها في اهتمامٍ، الدمعة المنسدلة من عينيها جعلتها ترى ابنتها ذات الجدائل الصغيرة، رأت ابنتها تقف محل تلك الفتاة اليافعة، اخترق قلبها أنين مقبض وقد سال الدمع من عينيها هي الأخرى، فهمست في صوتٍ باكٍ:

•(ريانا).... بنتي!!

أغلقت (ريانا) عينيها في ألمٍ مفزع حين رأتها تمد يدها تجاهها، لم تتمكن من الوصول إليها حيث كان السوار الحديدي يعيق يديها، فوجهت حديثها إلى الممرضات قائلة:

•سيبوها.

أجابتها إحداهن حين جذبتها للخلف بعيدًا عنها:

•ممكن تأذيكي.

صرخت في غضبٍ حين أشارت إليهن باكية:

•مستحيل أم تأذي بنتها، فكيها.

حررت السوار الحديدي، فما كان منها إلا محاولة الركض تجاه ابنتها لتضمها إلى صدرها المشروخ، سقطت أرضًا أمامها، فانحنت

(ريانا) لتحتضنها حين رأى أمامه مشهدًا أسطوريًّا، يسجل معاني الأمومة الحقيقية لأجل ابنتها ضحت بحياتها، تحملت العيش داخل ألف حاجز بينما عاشت ابنتها تجتهد لتحقيق رغبات أمها لتمنحها الحياة دور البطولة، فتشاركها مع والدتها لتخلصها مما عاشته، بكى الجميع بكاءً مريرًا، وعلى رأسهم الممرضات الثلاث اللاتي خشين عليها من تلك السجينة المجنونة من وجهة نظرهن، اقترب (صهيب) و(قاسم) منهن، فحاول (قاسم) أن يجعلها تقف على قدميها لكنها منعت أي أحد من الاقتراب، انتابتها حالة غريبة من الذعر، وكأن المشهد الذي حدث منذ أعوام سيعاد أمامها، تشبثت بابنتها في قوةٍ لتقبلها، رؤيتها كان آخر ما توقعته، فخيل لها أنها ستلقى حتفها في هذا المكان المقبض، أغلقت (ريانا) عينيها هامسة:

•وحشتيني أوي يا ماما، كنت خايفة معرفش أحقق وعدي ليكِ، كنت خايفة مشفكيش تاني.

ربتت (غصن) على خصرها لتشم ريحها، ابنتها عادت لحضنها أخيرًا..

•عربية الإسعاف جاهزة يا (ريانا).

رفعت (غصن) عينيها تجاه هذا الصوت لتجد (صهيب) أمامها، الرجل الذي عاشت طوال تلك السنوات تدعو له مثلما أخبرته في آخر لقاءٍ جمعهما، أومأت (ريانا) قائلة:

•أنا مش هسيبك تاني أبدًا، هدخلك مستشفى أحسن من دي بكتير

وهكون معاكِ كل ثانية، مش هسيبك ومتأكدة إنك مش هطولي فيها.

بقاؤها معها، هذا الجزء المفهوم من جملتها الطويلة جعلها تبتسم فرحًا، فنهضت (ريانا) لتساعد والدتها التي كاد يختل توازنها، وساعدها (قاسم) باليد الأخرى، تطلعت (غصن) إلى هذا الشاب الذي يساعدها على الوقوف في دهشة، فرددت (ريانا) مبتسمة:

•(قاسم) خطيبي.

ابتسمت (غصن) لتتأمله وتتذكر ملامحه حينما ولج غرفة مكتب (صهيب) فأمسك يد ابنتها وخرج من مركز الشرطة، تذكرته فور ذكر ابنتها لاسمه، بادلها (قاسم) الابتسامة ليضيف قائلًا في لطفٍ:

•حمد للّه على سلامة حضرتك.

أومأت ثم سارت معهم نحو السيارة في خطواتٍ بطيئة، صعدت إلى السيارة، فعاونتها (ريانا) على التمدد على السرير الصغير الموجود فيها لتتحرك تجاه المشفى الخاص، أما (صهيب) فصعد إلى سيارة (قاسم) الذي لحق بهما على الفور، وفي داخله ينبض شعور غريب برؤيته بعد تلك السنوات كأن شيئًا في داخله قد مات ثم عاد إلى الحياة من جديد ليؤكد أنه ما زال على قيد الحياة...

مرت عدة شهور، تلقت فيها (غصن) العلاج المناسب في وجود ابنتها الذي شكل فارقًا عظيمًا، تفادت (غصن) كل المشاكل والعوائق النفسية التي قابلتها لتعود من جديد بفضل للّه ثم بفضل وجود

(ريانا) بجوارها، حتى حدد الطبيب المعالج يومًا محددًا لخروجها من المصحة، لذا وبدون أي ترددٍ تم تحديد موعد الزفاف في اليوم المنشود نفسه...

رأت العالم بعيني ابنتها التي ترتدي فستان زفافها الأبيض، سعادة (ريانا) كانت مكتملة في وجود (غصن).. تعلقت (ريانا) بذراع (صهيب) الذي هبط معها الدرج العملاق للقاعة المفتوحة ليجد (قاسم) يقف على آخر درجاته، يترقب وصول عروسه الرقيقة، سلم يدها له مبتسمًا ليخبره في جدية، لم يعهدها من قبل:

•(ريانا) من النهاردة مسؤوليتك.

ضغط (قاسم) على يدها ليجيبه في ثقةٍ قائلًا:

•وأنا أد ثقتك يا عمي.

ابتسمت (ريانا) لتجذب طرف فستانها الأبيض الطويل وتتقدم معه تجاه والدتها التي تقف بعيدًا عن الدرج، تراقبها في سعادة، تأملتها (ريانا) فتلك والدتها التي تركتها منذ أعوامٍ، تقف أمامها من جديدٍ، فطوال تلك المدة كانت ملامح (غصن) مختلفةً عن ملامحها، أما اليوم، فهي تهندم ملابسها بعدما استردت جزءًا من عافيتها، عادت لملامحها سابقًا، وإن كان قد غلبها الشيب قليلًا لكنها ما زالت جميلة في عيني ابنتها، احتضنتها في دهشةٍ لأنهما تغلبا على كل تلك العواقب، طبعت (غصن) قبلة صغيرة على جبينها لتوجه حديثها إلى (قاسم) قائلة:

•ربنا يجعل أيامكم كلها هنا وسرور.

أجاب (قاسم) قائلًا في حبورٍ:

•آمين يا رب.

ثم رفع يده إلى (ريانا) لتمسك به وتتجه إلى المنصة التي صممت بالأزهار الحمراء، وزهرة عباد الشمس الذي تعمد (قاسم) أن يزين بها المنصة لما تحملها من ذكرياتٍ شاركتها معه معشوقته، فأحضرها خصوصًا إليها، وُضعت يد غريبة على كتف (غصن) فاستدارت خلفها لتجدها سيدة عجوز، يبدو عليها الوقار، تبتسم لها لتجبرها على التحرك كي تجلس على المقعد المجاور لها، فعلمت أنها الجدة التي أخبرتها (ريانا) بها، تعلقت عينا (غصن) بوجه ابنتها السعيد حينما همس (قاسم) بكلماتٍ مبهمة، انتقلت عينا الجدة إلى عيني (صهيب) المتعلقتين بمراقبة (غصن) في نظراتٍ غامضة، فابتسمت في مكرٍ حينما جالت في خاطرها فكرة مجنونة، وخصوصًا بعد خطبة (مرين) وزواج (ريانا) فسيصبح ابنها وحيدًا حينما يصبح منزله خاليًا من فتاتيه، فربما حينها ستتمكن من إقناعه بما لم يقبل به طوال السنوات الماضية حينما كان يتحجج بالفتاتين، ابتسامتها الماكرة كانت نقطة فاصلة في قدر (غصن) المجهول الذي سيسوقها إلى قدرٍ جمعها بوكيل النيابة المتجهم الملامح لكن بقلبٍ يشفق عليها ويكن لها شيئًا خاصًّا!

تمت بحمد الله



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

زوروا موقعنا الإلكتروني

www.ibda3eg.com

info@ibda3eg.com

publishing@ibda3eg.com

dreidibrahim@gmail.com